

الزهد عند الشيخ الحاج عمر الفوتي تال

د. محمد ألف سيسه

مساعد في قسم اللغة العربية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة شيخ أنت جوب بديكار، السنغال

Résumé

Le *zuhd* (l'ascétisme) se définit souvent comme la diminution des convoitises. Il est, en un sens très général, l'effort ascétique qui doit dépouiller l'âme de toute attache au créé. Ainsi ce détachement des choses mondaines, disent les soufis, procure-t-il au cœur la quiétude alors que le fait de les convoiter n'apporte que de l'angoisse et de la tristesse. C'est ce qui fait dire à El Hadji Omar que l'agrément de Dieu réside dans le renoncement aux mondanités tout en évitant que le cœur s'y attache. Force est de se demander si l'acte de se détacher du monde signifie le fait de le sortir de son cœur et non de ses mains alors que le cœur y est attaché ou signifie-t-il le fait de s'en laver totalement les mains pour être en dépendance à l'égard des autres ? Deux catégories doivent être, au moins, selon El Hadji Omar, exclues de l'ascétisme : Le pauvre qui s'arc-boute à son dénuement pour s'imposer une vie d'ascète et l'apathique faisant du *zuhd* un subterfuge pour renoncer au travail. Et c'est la raison pour laquelle, El Hadji Omar a maille à partir avec les soufis esseulés, repliés sur eux-mêmes, isolés dans leurs lieux de retraite spirituelle où ils se cachent, livrés à un désœuvrement maniable, étant persuadés qu'ils se

sont élevés à la pureté fondamentale ou faisant sien l'ascétisme pour s'abandonner béatement à l'inaction, pensant alors que la sainteté (*al-wilâya*) consiste à vivre en vase clos. Pratiquer l'ascétisme, à son sens, ne signifie aucunement croupir dans l'oisiveté ni verser dans l'anachorétisme.

Mots clés :

Ascétisme (الزهد) - Action d'acquérir (التكسب) – Parures mondaines (زخارف الدنيا) – La confiance en Dieu (التوكل)

المقدمة

يتفاوت الناس بل العلماء في فهم المعنى الحقيقي للزهد في الدنيا، وتتباين الأفهام وتتعدد الاتجاهات في تصرفهم، بل يتجاوز الأمر ذلك إلى حدوث تناقضات في سلوكيات الناس إزاء مفهوم الزهد، فيتغايرون في استيعاب هذا المعنى تارة، ويتطرفون في ذات المفهوم تارة أخرى. وقد تكلم السلف ومن بعدهم في تفسير الزهد في الدنيا وتنوعت عباراتهم عنه¹، غير أن مفهوم الزهد الأكثر اتفاقاً في الشرع هو ترك ما لا ينفع في الآخرة مما يكون ضاراً للدين أو يشغل عن طاعة الله. ولكن العديد من الباحثين كثيراً ما يقع في اللبس، فيعتبرون أن الزهد هو العزلة ولبس المرقعات، ولبس الصوف...، بدليل أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يعيش عيشة الزهد في طعامه ولباسه، وكان يعيش لآخرته ولم يركن إلى زينة الحياة الدنيا...² وإذا اعتبرنا أن الزهد المشروع هو ترك ما لا ينفع في الدار الآخرة، فهل ترك ما يستعين به العبد على طاعة الله من الزهد المشروع أو ترك الفضول التي تشغل عن طاعة الله ورسوله هو المشروع؟ وعلى كل حال، فالمؤمن الزاهد لا تشغله دنياه عن آخرته بل يجعلها مطية لآخرته ولا يفرط بآخرته لأجل دنياه.

فالشيخ الحاج عمر الفوتي رضي الله عنه من زمرة الصوفية الذين يرون أن الزهد أمر قلبي أي سفر القلب من وطن الدنيا وأخذه في منازل الآخرة وأن الزاهد حقاً من أته الدنيا منقاداً فأعرض عنها وسدّها عن الدخول في قلبه راغباً ما عند الله لما علم أن الدنيا منقطعة زائلة فانية، فلا ينبغي للعبد أن يشتغل بالفاني الزائل عن الباقي الدائم. أما زهد من عجز عنها ولم تفتح عليه فأمر سهل والكل يستطيع. وكذلك الساكن المتعجرف الذي لا يتحرك ويتخذ الزهد حبالاً للفرار عن التكسب، فأخرج هؤلاء من

¹ انظر: الحنبلي، عبد الرحمن بن شهاب الدين بن أحمد، جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم، دار الفكر، 2009، ص. 297.

² سنقوم بتحليل هذه النقطة في الفصل الثاني (الزهد الحقيقي والزهد الزائف).

دائرة الرجال الزهاد - في رأي الشيخ الحاج عمر - واجب. ومن هنا لا بدّ من طرح بعض تساؤلات: وهل التكسّب يتمشى مع الزهد في الدنيا؟ هل الزهد يعني الانقطاع عن الدنيا بالكلية؟ وهل من شروط الداعي إلى الله إثارة الزهد مع خلقّ اليدين من أمور الدنيا وصار كلاً على الناس؟

اعتماداً على المنهج التحليلي سنحاول تسليط الضوء على هذه النقاط الأساسية، وذلك بعد أن نتطرق إلى تناول الزهد على ضوء الكتاب والسنة وما قاله بعض العلماء فيه.

أ- الزهد في الإسلام

الزهد لغة: زَهَدَ فيه وعنه زهْدًا وزهَادَةً: أَعْرَضَ عنه، وتركه لاحتقاره، أو لتحرجه منه أو لقلته، وزَهَّدَ في الشيء رغب عنه، ويقال: زهد في الدنيا: ترك حلالها مخافة حسابه وترك حرامها مخافة عقابه. وهو كما أشار إليه ابن منظور، ضد الرغبة والحرص على الدنيا. ولا يقال الزهد إلا في الدين خاصة³.

واصطلاحاً: هو قلة الرغبة في الشيء، وعند أهل التصوف هو بغض الدنيا والإعراض عنها، وقيل ترك راحة الدنيا لراحة الآخرة، وقيل بذل ما تملك ولا تؤثر ما تدرك⁴. وهو عبارة عن رغبته عن الدنيا عدولاً إلى الآخرة، أو عن غير الله تعالى عدولاً إلى الله تعالى وهي الدرجة العليا، وكما يشترط في المرغوب فيه أن يكون خيراً عنده فيشترط في المرغوب عنه أن يكون مقدوراً عليه، فإن ترك ما لا يقدر عليه محال، وبالترك يتبين زوال الرغبة، ولذلك قيل لابن المبارك: يا زاهداً، فقال: الزاهد عمر بن عبد العزيز إذ جاءته الدنيا راغمة فتركها، وأما أنا ففيماذ زهدت⁵؟

فإن الزهد في الدنيا من فضائل الأعمال التي لا يقوى عليها إلا خاصة عباد الله الصالحين الذين ملئت قلوبهم بذكر الله وكمال الرغبة في نعيم الآخرة فهانت الدنيا في نفوسهم واستحقروها وأعرضوا عن زينتها وتقللوا منها "واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا" (الكهف،

³ انظر: المصري، جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الإفريقي، لسان العرب، بيروت-لبنان، لات، المجلد الثالث، ص. 196.

⁴ انظر: العسقلاني، الحافظ بن حجر، سبل السلام شرح بلوغ المرام، الطبعة الأولى، بيروت-لبنان، 1426هـ/2005م، ص. 1206.

⁵ انظر: الغزالي، أبو حامد، إحياء علوم الدين، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، 2008، ص. 190.

28). فالقرآن الكريم مملوء بآيات تدعو إلى الزهد في الدنيا والإخبار بسرعة فنائها واضمحلالها والترغيب في دار الآخرة بشرفها ودوامها⁶.

1- الزهد في الكتاب والسنة

إن الآيات التي حثت على التزهد في الدنيا كثيرة وإن لم يجيء في الكتاب لفظ "الزهد" إلا في مكان واحد، وذلك في شأن الذين شروا يوسف -عليه السلام- عند قوله تعالى ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ (يوسف، 20). ومن تلك الآيات قوله تعالى: "اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور" (الحديد، 20). وقوله سبحانه: ﴿زِينٍ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعٌ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنُ الْمَآبِ﴾ (آل عمران، 14). وقوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يَرِيدَ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يَرِيدَ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ

⁶ ففي شرح مقام الزهد ووصف أحوال الزاهدين يقول الإمام أبو طالب المكي: إن الله تعالى قد سمى أهل الزهد علماء بقوله تعالى إذ وصف قارون "فخرج على قومه في زينته" إلى قوله تعالى "وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن" (القصص، 79-80) قيل هم الزاهدون في الدنيا. وقال عز وجل: "أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا" (القصص، 54) جاء في التفسير صبروا على الزهد في الدنيا. وقال جل وعلا "والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم" (الرعد، 23-24) قيل: على الفقر ويشهد للصبر عن الدنيا في هاتين الآيتين قوله عز وجل في وصف العلماء الزاهدين لما قال "وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير". وقال عقب ذلك في بقية ثنائه عليهم "ولا يلقاها إلا الصابرون" أي عن زينة الدنيا ثم قال في مدحهم بوصف آخر "يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا"، فقد حصل للزاهد أجران بصره على الفقر وبوجود زهده. انظر: المكي، أبو طالب محمد بن أبي الحسن، قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريدين إلى مقام التوحيد، دار الفكر، لات، ص. 242.

نصيب ﴿ (الشورى، 20). وقوله تعالى: ﴿قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلًا﴾ (النساء، 77). وقوله تعالى: " بل تؤثرن الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى " (الأعلى، 16-17) .

أما الأحاديث المشيرة إلى ذم الدنيا وحقارتها وإلى الإعراض عن ملذاتها الفانية فأكثر من أن تحصر فننبّه بطرف منها على ما سواه.

وفي الحديث جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله دلّني على عمل إذا عملته أحبّني الله وأحبّني الناس، فقال: ازهد في الدنيا يحبك الله وازهد فيما عند الناس يحبك الناس⁷. فمعنى الزهد إذا الإعراض عن زينة الدنيا والاستخفاف بشأنها والرضا بالقليل. وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: نام رسول الله صلى الله عليه وسلم على حصير فأثر في جنبه، فقلت: يا رسول الله، لو اتخذنا لك وطاء فقال: "مالي وما للدنيا ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت ظل شجرة ثم رحل وتركها"⁸. وعن جابر -رضي الله عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- مر بالسوق والناس كَنَفَتِيهِ، فمر بِجَدِّي أَسَكَّ⁹ ميت، فتناوله فأخذ بأذنه، ثم قال: "أيكم يحب أن يكون هذا له بدرهم؟" فقالوا: ما نحب أنه لنا بشيء وما نصنع به؟ ثم قال: "أتحبون أنه لكم؟"

⁷ حديث حسن رواه ابن ماجه وغيره بأسانيد حسنة. لشرح هذا الحديث انظر الحنبلي، عبد الرحمان بن شهاب الدين بن أحمد، جامع العلوم والحكم، مرجع سابق، ص. 295. والله درّ القائل:

كن زاهدا فيما حوته يد الورى
تضحى إلى كل الأنام حبيبا
أو ما ترى الخطّاف حرّم زادهم
فغدا مقيما في البيوت ربيبا

لم أف على قائل هذين البيتين عثرت عليهما في كتاب تائيه السلوك إلى ملك الملوك لأحمد عرب الشرنوبى، المكتبة العصرية، بيروت، 2004، ص. 27.

⁸ انظر: النووي، الحافظ محيي الدين أبو زكريا، رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين، دار إحياء الكتب العربية، 1918، ص. 222.

⁹ أي صغير الأذنين.

قالوا: والله لو كان حياً كان عيباً، إنه أسك فكيف وهو ميت! فقال: "فو الله للدنيا أهون على الله من هذا عليكم"¹⁰. وعن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "يقول العبد: مالي. مالي. إنما له من ماله ثلاث: ما أكل فأفنى، أو لبس فأبلى، أو أعطى فاقتنى. وما سوى ذلك فهو ذاهب، وتاركه للناس"¹¹؛ وعنه أيضاً قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "اللهم اجعل رزق آل محمد قوتا"¹². وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "من أحب دنياه أضر بآخرته، ومن أحب آخرته أضر بدنيته، فآثروا ما يبقى على ما يفنى"¹³، وكذلك الحديث الذي رواه أبو نعيم عن علي "من زهد في الدنيا علمه الله بلا تعلم، وهده بلا هداية، وجعله بصيراً، وكشف عنه العمى"¹⁴.

¹⁰ انظر: النووي، أبو زكريا يحيى بن شرف، صحيح مسلم بشرح النووي، دار الفجر للتراث-القاهرة، الطبعة الثامنة، 2013، المجلد التاسع، ص. 283.

¹¹ نفس المرجع، ص. 284.

¹² نفس المرجع، ط4، ص. 165. وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم: "الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر" معناه أن كل مؤمن مسجون ممنوع في الدنيا من الشهوات المحرمة والمكروهة، مكلف بفعل الطاعات الشاقة، فإذا مات استراح من هذا، وانقلب إلى ما أعد الله تعالى له من النعيم الدائم، والراحة الخالصة من النقصان. وأما الكافر فلإنما له من ذلك ما حصل في الدنيا مع قلته وتكديره بالمنقصات، فإذا مات صار إلى العذاب الدائم، وشقاء الأبد. المرجع نفسه، ص. 294.

¹³ انظر: الهاشمي، أحمد، مختار، الأحاديث النبوية والحكم المحمدية، دار الفكر، بيروت-لبنان، 2004، ص. 128.

¹⁴ المرجع السابق، ص. 135. ولا بأس أن نذكر هنا أحاديث أخرى، منها قول النبي صلى الله عليه وسلم لابن عمر رضي الله عنه: "كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل". انظر الهاشمي، السيد أحمد، مختار، مرجع سابق، ص. 109. وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "يقول العبد: مالي مالي، إنما له من ماله ثلاث: ما أكل فأفنى، أو لبس فأبلى، أو أعطى فاقتنى. وما سوى ذلك فهو ذاهب وتاركه للناس". انظر حسونة، الشيخ عبد القادر عرفان العشاء، الأحاديث القدسية مع شرها، دار الفكر، لبنان، 2016، ص. 79. انظر النووي، أبو زكريا يحيى بن شرف، صحيح مسلم بشرح النووي، مرجع سابق، ص. 1352، رقم الحديث

2- أقوال بعض العلماء في الزهد

بما أن الدنيا ليست بدائمة وما هي إلا أيام مضت وما مر منها لا يعود وإنها بالبلاء محفوفة، وبالفناء معروفة، وبالغدر موصوفة، وكل ما فيها إلى زوال وهي بين أهلها دُولٌ وَسِجَالٌ، فيرى الصوفية كلهم أو جلهم أنه يكون واجبا على المسلم العاقل أن يزهد عنها أيما زهد كيلا تغره حطامها الفانية. لذا، هجروها ونبدوها وراء ظهورهم، ولم يقتصروا على الانصراف عنها ولكن عرضوا أقوالا وعبارات ذات مؤثرات زهدية يحضون بها الناس على ألا يركنوا إليها لأنها دار ممر لا دار مقر، ودار غرور لا دار سرور.

قال سفيان بن عيينة: لفظ الزهد هو ثلاثة أحرف، زاي وهاء ودال؛ فمعنى الزاي إشارة إلى ترك زينة الدنيا، ومعنى الهاء أن تترك هوى النفس، ومعنى الدال أن تترك الدنيا بأسرها. فإذا كان هكذا يسمّى حينئذ زاهدا¹⁵. وقال إبراهيم بن أدهم: على القلب ثلاثة أغطية الفرح والحزن والسرور، فإذا فرحت بالموجود فأنت حريص والحريص محروم، وإذا حزنت على المفقود فأنت ساخط والساخط معذب، وإذا سررت بالمدح فأنت معجب والمعجب محبط عمله. وقال ابن رجب الحنبلي البغدادي في كتابه "جامع العلوم والحكم": ومعنى الزهد في الشيء الإعراض عنه لاستقلاله واحتقاره وارتفاع الهمة

2959. وقال-صلى الله عليه وسلم-مبيناً حقارة الدنيا: "ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه في اليم، فليُنظر يم يرجع". انظر: النووي، الحافظ محيي الدين أبو زكريا، رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين، دار إحياء الكتب العربية، 1918، ص. 215. وقال: "لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة، ما سقى كافرا منها شربة ماء. نفس المرجع، ص. 219.

¹⁵ انظر: سراج القلوب وعلاج الذنوب لزين الدين علي المعيري على هامش قوت القلوب في معاملة المحبوب لأبي طالب المكي، دار الفكر، الجزء الثاني، لات، ص. 124. وخلاصة القول: الدنيا والآخرة ضربتان، ترضي واحدة وتغضب الأخرى، وليس من الممكن أن ترضي التنتين أبداً، فمن أحب دنياه أضر بآخريته؛ لأنه يحب الدنيا فيبدأ في الطمع ويجمع لهذه الدنيا ويترك أمر الآخرة فأضر بآخريته. والعكس بالعكس: الذي ينتبه لأمر الآخرة لا بد أن تضع عليه أشياء من الدنيا، والدنيا تدعو صاحبها إلى أن يكون شريفاً مفتخراً، والآخرة تدعو صاحبها إلى أن يكون متواضعاً بين الناس، فالذي يضر دنياه ينتفع في آخرته. فعلى المؤمن العاقل أن يفضل ما يبقى على ما يفنى.

عنه يقال: شيء زهيد أي قليل حقير¹⁶. قال الإمام علي رضي الله عنه: الدنيا جيفة فمن أراد منها شيئاً فليصبر على مخالطة الكلاب¹⁷. وكان الحسن البصري يقول: رأيت سبعين بدرية كانوا والله فيما أحل الله تعالى لهم أزهد منكم فيما حرم الله تعالى عليكم¹⁸. قال المحققون: ليس الزهد فقد المال بفراغ اليد منه بل الزهد فراغ القلب منه. فقد كان سليمان بن داود عليهما السلام في ملكه من سادات الزاهدين¹⁹. وفي حلية الأولياء الزهد في الدنيا زينة المتقين منها يعرفون به من السكينة والخشوع²⁰.

ب- مفهوم الزهد عند الشيخ الحاج عمر

يبدو أن مفهوم الزهد عند بعض الناس مازال ملتبساً؛ لأنه يعني عندهم ترك الدنيا أو الاشتغال بها؛ ولكنهما لا يجتمعان في قلب مسلم أبداً، وحسب رأيهم فالمسلم مخير، إما الزهد في الدنيا بكل ما يحويه معنى الزهد من فقر وتقشف واستغناء عما في أيدي الناس، وعدم الرغبة فيها ولو بطريق مشروعة، مع تحمل كل ألوان العنت والمشقة؛ للفوز بالجنة؛ وذلك خير وأبقى، وإما الاقبال على الدنيا والانشغال بها والسعي في

¹⁶ انظر: الحنبلي، عبد الرحمان بن شهاب الدين بن أحمد، مرجع سابق، ص. 297.

¹⁷ انظر: الشعرائي، عبد الوهاب بن علي، الطبقات الكبرى، دار الفكر، الجزء الأول، لات، ص. 19. وفي شرح هذا القول، يقول الشعرائي: إن المراد بالدنيا ما زاد على الحاجة الشرعية بخلاف ما دعت الضرورة إليه، وذلك أن فضول الدنيا شهوات وأهل الشهوات كثير ولذلك ما رؤي زاهد قط في محل مزاحمة على الدنيا كما هو مشاهد، وإنما سُمي طالب الفضول كلباً للدنيا لتعلق قلبه لأن الكلب مأخوذ من التكلب وكل من عسر عليه فراق شهوته فهو كلبها.

¹⁸ انظر قوت القلوب لأبي طالب المكي، مرجع سابق، ص. 255.

¹⁹ انظر: سراج القلوب وعلاج الذنوب لعلي المعيري، مرجع سابق، ص. 118.

²⁰ انظر: الأصفهاني، الحافظ أبو نعيم، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، مكتبة الرحاب، القاهرة، 2007، الجزء الأول، ص. 31.

تحصيل نعيمها ومتاعها وهذه طريق غير مأمونة العواقب. فهؤلاء (الأولون) يرون أن الاستكثار منها موجب الهم والغم وكلما كثر التعلق بها تأملت النفس بمفارقة عند الموت، فكان هذا غاية زهدهم في الدنيا²¹. فالدنيا -في رأيهم- إنما فتحت على قوم ضلوا واغترروا وعتوا عتواً كبيراً، وازدادوا بالإقبال عليها كفرًا وشقاءً.

والآثار التي وردت عن السلف وتحثّ على فضيلة الفقر وبيان ما أعده الله لهم في الآخرة وهي روايات كثيرة مستفيضة في كتب الأخلاق والسلوك وعلى رأسها ما كتبه الإمام الغزالي رحمه الله في كتابه "مختصر إحياء علوم الدين" فقد جاء في كتاب ذم الدنيا أن عيسى عليه السلام قال: "من ذا الذي ييني على موج البحر داراً وتلكم الدنيا فلا تتخذوها قراراً. يا معشر الحواريين أرضوا بدني الدنيا مع سلامة الدين كما رضي أهل الدنيا بدني الدين مع سلامة الدنيا"²². وقال الحسن البصري: كان عيسى عليه السلام يلبس الشعر ويأكل من الشجرة ويبيت حيث أمسى²³. أضف إلى ذلك ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء بخمسائة عام"²⁴. ولهذا احتل الزهد مقاما مرموقا لدى الصوفية كما أشار إليه عبد الله حسن زروق أن السمة الغالبة للتصوف في نشأته هي الزهد والعبادة والذكر وما يتصل بهذه من مفاهيم مثل العزلة والخلة وما يعرف بالمقامات والأحوال مثل التوبة والصبر والتوكل والمحبة، كما أنه كان يهتم بمكارم الأخلاق²⁵.

²¹ انظر: الحنبلي، عبد الرحمان بن شهاب الدين بن أحمد، مرجع سابق، ص. 301.

²² انظر: الغزالي، أبو حامد، مختصر إحياء علوم الدين، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت-لبنان، الطبعة الأولى، 1990، ص. 168.

²³ انظر: الكلاباذي، محمد أبو بكر، التعرف لمذهب أهل التصوف، لات، لاط، ص. 9.

²⁴ انظر: النووي، الحافظ محيي الدين أبو زكريا، ص. 222.

²⁵ انظر: زروق، عبد الله حسن، قضايا التصوف الإسلامي، هيئة الأعمال الفكرية، الخرطوم، 2006، ص. 30.

غير أن مؤيدي الرأي الثاني أي الذين لم يرضوا بترك الدنيا مطلقاً اعترضوا مفهوم أدلة الرأي الأول بأدلة أخرى كقوله صلى الله عليه وسلم: "اليد العليا خير من اليد السفلى واليد العليا هي المنفقة واليد السفلى هي السائلة"²⁶، "لا حسد إلا في اثنتين، أحدهما: رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق"²⁷، وكذلك قوله: "والذي نفسي بيده، لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب على ظهره خيرٌ له من أن يأتي رجلاً أعطاه الله من فضله، فيسأله أعطاه أو منعه"²⁸، وقوله صلى الله عليه وسلم: "ليس بخيركم من ترك دنياه لآخرته، ولا آخرته لدنياه حتى يصيب منهما جميعاً، فإن الدنيا بلاغ إلى الآخرة. ولا تكونوا كلاً على الناس"²⁹، وبقوله صلى الله عليه وسلم لسعد بن أبي وقاص: "إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالةً يتكففون الناس"³⁰. وقال لأبي لبابة حين قال: يا رسول الله، إن من توبتي أن أهجر دار قومي التي أصبت فيها الذنب وأنخلع من مالي صدقةً إلى الله ورسوله: قال: يجزئك الثلث فلم يأمر بصدقة ماله كله³¹.

فأما الشيخ الحاج عمر فينضم إلى الفئة الثانية إذ أنه وأمثاله أخذوا العهد العام أن يقرضوا كل من استقرضهم من المحتاجين، سواء كان مشهوراً في حسن التعامل أم لا، امتثالاً لقول الله عز وجل: ﴿وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَنًا﴾³². وأما الفقهاء، فرأى صاحب الرماح أن هؤلاء فاتتهم تلك اللذة وذلك الأجر، ومن هنا تسارع الأكابر من الأولياء

²⁶ انظر: النووي، الحافظ محيي الدين أبو زكريا، ص. 244.

²⁷ نفس المرجع، ص. 248. انظر أيضاً المدري، أمير محمد، فتح المنان في دروس رمضان، دار الكتب اليمنية، الطبعة الثانية، 2012، ص. 246.

²⁸ انظر: الهاشمي، أحمد، مختار، مرجع سابق، ص. 110.

²⁹ نفس المرجع، ص. 115.

³⁰ انظر: ابن بطال، أبو الحسن علي بن خلف، شرح صحيح البخاري، مكتبة الرشيد، الرياض، لات، ص. 162.

³¹ نفس المرجع.

³² سورة الحديد، الآية 18.

إلى التكتسب بالتجارة، والزراعة، والحرفة، ليفوزوا بلذة الخطاب لا لعلّة أخرى من طلب ثوابٍ أو غيره³³، قال الله تعالى: ﴿رَجَالٌ لَا تُلْهِيمُ تِجَارَةً وَلَا بَيْعًا عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾³⁴. فوضفهم بالرجولية لأجل أكلهم من كسبهم، وإقراضهم من فواضل كسبهم كلّ محتاج، مفهومة أنّ من لا كسب له، والناس يُنفقون عليه، فهو من جنس النساء وليس له في الرجولة نصيب، وإن كان له حيلة كبيرة، وسبحة، وسجادة، وعذبة، ومرفعة، وشفاعات عند الحكام، وغير ذلك³⁵، قال الله تعالى: ﴿الرَّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾³⁶، قال: فعلم أنه لا يقدر في شيخ الزاوية أن يكون تاجراً أو زارعاً، بل ذلك أكمل له.

1- وجوب تركية النفس بالإعراض عن زخارف الدنيا

إن الشيخ الحاج عمر - لا شك - كان زاهداً إلا أن زهده - كما أسلفنا - زهد شرعي يقوم على الاعتدال والتوسط ملحاً بقوة على العزوف عن حب الدنيا وزبارجها مبيناً أن حب الدنيا لا يزيد القلب إلا سواداً. وقال في كتابه "تذكرة المسترشدين وفلاح الطالبين"

³³ انظر: تال، الحاج عمر بن سعيد، رماح حزب الرحيم على نحر حزب الرحيم، بيروت-لبنان، 1415هـ/1995م، ص. 272.

³⁴ سورة النور، الآية 37.

³⁵ انظر: تال، الحاج عمر بن سعيد، رماح حزب الرحيم على نحر حزب الرحيم، بيروت-لبنان، 1415هـ/1995م، صص. 271-272.

³⁶ سورة النساء، الآية 34.

واجتهدوا لا تلهكم أموالكم عن العبادة وذكر ربكم³⁷
رزقنا الديار هذا المالا وقال أنفقوا اسمعوا ما قالوا
زينة هذا المال لا تزيد إلا سواد القلب يا مريد³⁸.

ففي كتاب رماح حزب الرحيم على نخور حزب الرحيم يوضح الحاج عمر رضي الله عنه أن تزكية النفس من الرذائل النفسانية والشيطانية المرديّة، عاجلا وآجلا واجب على كل مسلم عاقل³⁹. ومما يؤكّد ذلك قوله أيضا في نفس الكتاب "الزهد في الدنيا يورث العلم من غير تعلم، وهدى بغير هداية، والعز من غير عشيرة، والغنى من غير مال"⁴⁰ ولكن رغم دعوته إلى تزكية النفس وتطهيرها من الرعونات والدنايا فإنه لم يرض الانقطاع عن الدنيا بالكلية كلا ولا النظر إليها بعين المقت والكراهية على الدوام كيلا تقع في الانطوائية والتخلي عن المسؤولية، فيكون الإسلام حينئذ معرضا للخطر من ضعف وهوان وذللّ وانحيار، عندما تنتشر فيه المظاهر المنحرفة من الزهد، وبذلك ضعفت وتدهورت شوكة المسلمين ويصبحون لقمة سائغة في يد الأعداء.

وقد بيّن رسول الله صلى الله عليه وسلم المقصود الحقيقي من الزهد حين قال في الحديث: عن أبي الدرداء⁴¹، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "ألا إن الزهادة في الدنيا ليست بتحريم الحلال، ولا إضاعة المال، ولكن الزهادة في الدنيا ألا تكون بما في

³⁷ انظر: تال، الشيخ محمد المنتقى أحمد، الجواهر والدرر في سيرة الشيخ الحاج عمر رضي الله عنه، دار البراق، 2005/1425، ص. 805.

³⁸ نفس المرجع، ص. 807.

³⁹ الحاج عمر الفوتي تال، الرماح، مرجع سابق، ص. 305.

⁴⁰ نفس المرجع، ص. 254.

⁴¹ هو أبو الدرداء عوف بن زيد (ت31هـ)، شهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم مشاهد كثيرة، وولاه عمر بن الخطاب القضاء بدمشق. ترجمته في: صفة الصفوة، ابن الجوزي، 246/1.

يديك أوثق منك بما في يد الله" ⁴². ولا يخالج أحدا أدنى شك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان قدوة الزاهدين ولكن كان يأكل الحلال من الطيبات، ويأتي من كل حلال بنصيب معلوم، ولم يكن الزهد عنده يعني التبطل عن التكسب وطلب الرزق، كما يتجلى ذلك في قوله لعمر بن العاص ⁴³.

وهكذا فلم يكن الزهد عند الشيخ الحاج عمر الفوقي رضي الله عنه ليعني الانصراف عن الدنيا انصرافاً تاماً، وإنما كان يعني الاعتدال والتوسط في الأخذ بأسبابها وملذاتها، وهذا مشار إليه في قوله تعالى: ﴿وَكذلك جعلناكم أمة وسطاً﴾ ⁴⁴ فالزهد عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام، لم يكن يعني كراهية الدنيا وعدم رعايتها رعاية تجعلها في خدمة الإيمان وأهله، لتكون لهم العزة في هذه الأرض، وإنما هو عدم حب الدنيا حبا يشغف بها القلوب، فوجود الدنيا بخذافيرها في يد المؤمن دون أن يعلق بها قلبه فتشغله عن ربه، هو في الحقيقة أرفع درجات الزهد. ذلك هو المهيع الذي اقتنع به الحاج عمر وسار عليه. وإيضاح ذلك قوله في رماح حزب الرحيم: "أخذ علينا

⁴² انظر: الهيتمي، علي بن أبي بكر بن سليمان، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، تحقيق: محمد عبد القادر أحمد عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2001، الجزء العاشر، ص. 369.

⁴³ فبعد إسلامه بخمسة أشهر، قابله النبي صلى الله عليه وسلم، فقال له: "خذ عليك ثيابك وسلاحك ثم اتني". فأتاه وهو يتوضأ فصعد في النظر، ثم طأطأ فقال: "إني أريد أن أبعثك على جيش فيسلمك الله ويغنمك، وأرغب لك من المال رغبة صالحة". قال: قلت: يا رسول الله، ما أسلمت من أجل المال، ولكني أسلمت رغبة في الإسلام، وأن أكون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: "يا عمرو، نعم المال الصالح للمرء الصالح". راجع: مسند أحمد بن حنبل، مسند الشاميين، حديث عمرو بن العاص عن النبي صلى الله عليه وسلم، رقم الحديث: 17692. وكان سفيان الثوري يدعو القراء إلى العمل والتكسب من ذات أيديهم، فذهب مرة إلى البصرة، فجلس في مجلس العابد البصري يوسف بن عبيد، فإذا فتیان كأن على رؤوسهم الطير، فقال: "يا معشر القراء، ارفعوا رؤوسكم، لا تزيدوا التخشع على ما في القلب...، واتقوا الله وأجملوا في الطلب، ولا تكونوا عيالاً على المسلمين". انظر حلية الأولياء، أبو نعيم الأصفهاني، رقم الحديث: 9224.

⁴⁴ سورة البقرة، الآية 143.

العهد ألا زهد في الدنيا بالكلية (...)، وإنما زهد في الدنيا زهد العارفين، وهو أن نُعلّق قلوبنا بحُبِّ الله عزَّ وجلَّ وحده ثم نمسك الدنيا بحذاقها لا نترك منها شيئاً إلا إن كان فيه شبهة، ونتصرّف فيها تصرّف حكيم عليم، ونستعمل كل شيء فيما خلق له...⁴⁵

2- الزهد الحقيقي والزهد الزائف

إن للزهد مفاهيم متعددة عند الصوفيين. يرى بعض منهم أن الزهد هو عدم الاكتراث بالدنيا وإشاحة الوجه عنها بالكلية بغض النظر عن حلالها وحرامها بينما يرى آخرون أن الزهد أمر قلبي والقلب لا سلطان عليه إلا لصاحبه⁴⁶. وهذه الطائفة الثانية ترى بأن متاع الغرور الذي جعل الفئة الأولى تعرض عن الدنيا هو ما يلهي العبد عن طلب الآخرة، وما لم يلهمه فليس متاع الغرور. وعلى هذا، سار بعض صوفية الإسلام، فجمعوا بين الزهد في الدنيا واتخاذ الأسباب، بل واكبوا التطورات والأحداث التي تطرأ

⁴⁵ انظر: الحاج عمر الفوتي تال، الرماح، مرجع سابق، ص. 273.

⁴⁶ وقول الإمام أحمد بن حنبل دليل على ذلك إذ قال: إن الزهد على ثلاثة أوجه: ترك الحرام وهو زهد العوام وترك الفضول من المال وهو زهد الخواص وترك ما يشغل العبد عن الله تعالى وهو زهد العارفين. انظر: سراج القلوب وعلاج الذنوب لزبن الدين علي المعيري، مرجع سابق، ص. 125. وفي ذلك قال الشيخ عبد القادر الجيلاني - رحمه الله -: "أخرج الدنيا من قلبك وضعها في يدك أو في جيبك، فإنها لا تضرك". انظر الفتح الرباني والفيض الرحمان، عبد القادر الجيلاني (ت 561هـ)، تحقيق: أبو سهل نجاج عوض صيام، المقطم للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، لات، ص. 192.

فيه، وهم دائماً في تحديد وتغيير مستمرين، حتى اشتهر عنهم قولهم: "الصوفي ابن وقته"⁴⁷ واشتهر عنهم كذلك قولهم: "الجسد في الحانوت والقلب في الملكوت"⁴⁸.

فالتوكل، كما قال الشرنوبلي، من لوازم كمال الإيمان ولكنه لا يمنع الأخذ بالأسباب كما عرّفه بعض العارفين: هو طرح البدن في العبودية وتعلّق القلب بالربوبية⁴⁹. ولذا قال بعضهم: طلب الكسب الحلال لازم كطلب العلم⁵⁰. وجاء في الحديث كما سبق ذكره: "لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب على ظهره خير له من أن يأتي رجلاً أعطاه الله فيسأله أعطاه أو منعه"⁵¹. ومن هنا يُفهم قول سليمان الداراني: إذا بلغ العبد غاية من الزهد أخرجه ذلك إلى التوكل⁵². وما أطف قول بعضهم:

توكل على الرحمان في الأمر كله ولا ترغب في العجز يوماً عن الطلب
ألم تر أن الله قال لمريم وهزي إليك الجزع يساقط الرطب
ولو شاء أدلى الجزع من غير هزه إليها ولكن كل شيء له سبب⁵³
وقد أوضح المعيري أنه قد ظهر في هذا الزمن قوم كذابون على الله يظهرون
الزهد يراؤون به الناس فيتحلون بحلى الزهد في ظاهريهم وقلوبهم مملوءة بالرغبة في الدنيا

⁴⁷ انظر: الحسني، أحمد بن محمد بن عجيبة، إيقاظ الهمم في شرح الحكم، المكتبة التوفيقية، القاهرة، 2008، ص. 80.

⁴⁸ يعني الجسد في حانوت التجارة ومخالطة الناس قصد طلب الرزق، والقلب يسبح ربّه بأنوار الذكر. إذ كم من صوفي كُنّي بحرفته وصنعتة كالخزاز والدقاق والدباغ، وكم من صوفي كان أثرى أهل عصره، ولم تشغل هؤلاء أموالهم وتجارتهم عن الله، ولم تمنعهم أن يكونوا أزهد الناس، بل كانت طريقتهم ومخارجهم في السير إلى الله عز وجل.

⁴⁹ انظر: أحمد عرب الشرنوبلي، مرجع سابق، ص. 41.

⁵⁰ نفس المرجع.

⁵¹ انظر: الهاشمي، أحمد، مختار، مرجع سابق، ص. 110.

⁵² انظر: الأصفهاني، الحافظ أبو نعيم، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، مكتبة الرحاب، القاهرة، 2007، الجزء التاسع، ص. 257.

⁵³ انظر: أحمد عرب الشرنوبلي، مرجع سابق، ص. 43.

يلبس أحدهم الهدمة بثلاثة دراهم وفي قلبه شهوة بثلاثة آلاف يلبسون ثياب الزهاد وقلوبهم قلوب الذئاب، الزهد في ثيابهم والطمع في قلوبهم⁵⁴. وما يلفت النظر هنا ويوقف له بالمرصاد هو ما قال الشيخ الحاج عمر أنه ما ضَرَّ بعضَ الناس إلاَّ جهلُهم بالفرق بين الزهد والترهب، وبين التوكل والعجز.

والمرء محتاج إلى أن يعرف فرقَ أمورٍ في افتراقها خفاء، كالفرق بين العجز والتوكل، فالتوكل عمل القلب وعبوديته اعتمادا على الله، والثقة به، والتجاء إليه، واجتهاده في تحصيلها، والعجز تعطيل بكفايته... والعجز تعطيل الأمرين أو أحدهما. إما أن يعطل السبب عجزا عنه ويزعم ذلك توكلا، وإنما هو عجز وتفريط كما في أثر عمر، وإما أن يقوم بالسبب ناظرا إليه، معتمدا عليه، غافلا عن المسبب مُعْرِضا عنه، وإن خطر بباله لم يثبت معه ذلك الخاطر، ولم يعلق قلبه تعلُّقا تامًّا بحيث يكون قلبه مع الله وبدنه مع السبب⁵⁵. فكأنه لم يعرف أن معنى التوكل ليس ترك الكسب بالبدن، وترك التدبير بالقلب، والسقوط على الأرض كالحلقة الملقاة، وهذا ظنُّ الجهال، فإنَّ ذلك حرام في الشرع⁵⁶.

وقد استفزع الشيخ الحاج مالك سي رضي الله عنه هذا العمل الذي اطمأنت إليه قلوب بعض الناس سيِّما الذين تركوا الاكتساب وآثروا السؤال:

ولا تطالبهم من القليل ولا من الكثير يا خليلي

⁵⁴ انظر: سراج القلوب وعلاج الذنوب لزين الدين علي المعيري، مرجع سابق، ص. 121.

⁵⁵ الحاج عمر الفوتي تال، الرماح، مرجع سابق، ص. 274.

⁵⁶ ويؤخذ مما عرضنا أيضا أن حقيقة الزهد في الدنيا قصر الأمل في القلب بحيث يستحضر المؤمن أنه عابر سبيل في الدنيا راحل عنها عن قريب وليس الاقتصار على بعض مظاهر التخشن مع طمع القلب فيها ولا التفرغ للعبادة عن سائر الشواغل، لأن الرجل ليكون عنده المال وهو زاهد في الدنيا وإن الرجل ليكون فقيرا وهو راغب فيها. انظر الدرة الخريدة، مرجع سابق، ص. 42.

إلا الذي سمحت النفوس ببذله فذلك النفيس⁵⁷.
وقال أيضا في قصيدة سمّاها نصيحة لأبناء الزمان:

وقد جعلوا روم الهدية حرفة تهادوا بها سر عظيم غناء⁵⁸

لكي نتفادى من هذه المفاهيم الخاطئة للزهد والتوكل لم ير الشيخ الحاج عمر سدها إلا أن نُعَلِّمَ أولادنا الحرفة بعد تعليمهم أمور دينهم التي لا بد منها، فإنه إن لم يكن بيده حرفة أكل بدينه أو بلسانه، وسلق الناس بالسنة حداد، وحَقَّد عليهم في الباطن. وما أورد الحاج عمر رضي الله عنه في الرماح دليل على ذلك "أنّ الصحابة أثنوا عند النبي صلى الله عليه وسلم على رجل بالعبادة فقال صلى الله عليه وسلم فمن كان يطعمه ويسقيه ويعلف دابته ويكفيه ضيعته قالوا نحن يا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال كلكم خير منه⁵⁹"، فقال أبو سليمان الداراني رضي الله تعالى عنه: "ليس الشأن أن تَصُفَّ قدميك للعبادة وغيرك يقوتك"⁶⁰. ومن هذا المنطلق يمكن القول: إذا كان الناس في الزمن الماضي يُكْرِمُونَ حَمَلَةَ القرآن، ويرتّبون لهم المراتب، ويهدون إليهم الهدايا، ويتفقدونهم في المواسم وغيرها، يقولون لهم: اشتغلوا ونحن نكفيكم جميع ما تحتاجون إليه، فصار الفقيه اليوم لا يحصل له ما ينفقه على عياله حتى يذوب قلبه من الدوران طول النهار، ثم بعد ذلك يأكل صدقةً، فتَعَلَّم الحرفة للفقيه الآن مِنْ أُنْ بَرَك

⁵⁷ انظر سي، الحاج مالك، فاكهة الطلاب في الطريقة التجانية، ترجمة البروفسور روحان امباي، لاط، 2002، ص. 33.

⁵⁸ ديوان الشيخ الحاج مالك سي، مخطوط، ومطلع تلك القصيدة:

ولا تركنن حيي لدار فناء فتخسر في الدارين دون مرء

⁵⁹ انظر: تال، الحاج عمر بن سعيد، رماح حزب الرحيم على نخور حزب الرحيم، دار الجيل، بيروت-لبنان، لات، ج1، ص. 44.

⁶⁰ نفس المرجع.

المصالح ولو كانت دنية كالآدمي والحجامة ونحوهم، فإنَّ وسَّعَ الله عليه كان، وإلاَّ فتُغْنِيه
عن سؤال الناس⁶¹.

⁶¹ وفي الدرّة الخريدة لشرح الياقوتة الفريدة يبين محمد النظيفي أنَّ من الذنوب ذنوبا لا يكفرها إلاَّ الهَمُّ في طلب المعيشة وأنَّ من طلب الدنيا حلالا وتعففا عن المسألة وسعيا على عياله وتعطفًا على جاره لقي الله ووجهه كالقمر ليلة البدر. ثمَّ أضاف: فقد كان سيدنا زكريا نجارا وكذلك سيدنا نوح وسيدنا إدريس خياطًا وسيدنا داود دراعًا وسيدنا آدم حراثًا وسيدنا محمد مجاهدًا صلوات الله وسلامه. انظر النظيفي، محمد فتحا بن عبد الواحد، الدرّة الخريدة في شرح الياقوتة الفريدة، دار الفكر، 1984، م1/ج2، ص. 39.

إن الزهد الذي كان يعيشه الشيخ الحاج عمر الفوقي رضي الله عنه هو ذلك الزهد السني الذي يقتضي الوسطية في الأمور، الوسطية التي لا تفريط فيها ولا إفراط لأن دين الإسلام كما أمرنا بالعبادة أمرنا أيضا ألا نهمّل أمورنا الدنيوية. وخير ما يؤكد ذلك قوله تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾⁶². فالزهد عند الشيخ الحاج عمر ليس بِخُلُوفِ اليدين من الدنيا وإنما هو بخُلُوفِ القلب كما ورد في قول أبي قلابة رحمه الله: "لأن أرى في معاشي أحب إليّ من أن أرى في زوايا المسجد"، وقال: عليكم بالسوق والصنعة فإنكم لن تزالوا كراما على إخوانكم ما لم تحتاجوا إليهم⁶³. فالشيخ الحاج عمر لم يوافق بمن يقول بدم الدنيا على الإطلاق اللهم إلا إذا اكتسبت على وجه التكاثر والتفاخر. وجاء في الرماح أنّ من شرط الدّاعي إلى الله ألا يكون متجّرّدا عن الدنيا بالكلية بأنّ تخلو يده منها، وذلك لأنه يحتاج بالضرورة إلى سؤال الناس، إمّا بالحال وإمّا بالمقال، وإذا احتاج إلى الناس هان عليهم، وقَلَّ نفعهم به، بخلاف ما إذا كان ذا مال يُعطي منه المحتاجين من مريديه وغيرهم إذ عزّ المؤمن استغناؤه عن الناس وشرفه في صدق توجهه في إرضاء الله. فهذا الزهد عند الشيخ الحاج عمر رضي الله عنه هو "زهد الرجال الكمل"⁶⁴.

⁶² سورة القصص، الآية 77.

⁶³ انظر: النظيفي، محمد فتحي بن عبد الواحد، مرجع سابق، ص. 38.

⁶⁴ انظر: تال، الحاج عمر، رماح حزب الرحيم، مرجع سابق، ص. 272.

المراجع

✓ القرآن الكريم

- ابن بطلال، أبو الحسن علي بن خلف، شرح صحيح البخاري، مكتبة الرشيد، الرياض، لا ت.
- الأصفهاني، الحافظ أبو نعيم، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، مكتبة الرحاب، القاهرة، 2007.
- تال، الحاج عمر بن سعيد، رماح حزب الرحيم على نحر حزب الرجيم، بيروت-لبنان، 1415هـ/1995م.
- الجيلاني، عبد القادر، الفتح الرباني والفيض الرحماني، المقطم للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، د.ط، د.ت.
- الحسني، أحمد بن محمد بن عجيبة، إيقاظ الهمم في شرح الحكم، المكتبة التوفيقية، القاهرة، 2008.
- الحنبلي، عبد الرحمان بن شهاب الدين بن أحمد، جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم، دار الفكر، 2009.
- العسقلاني، الحافظ بن حجر، سبل السلام شرح بلوغ المرام، الطبعة الأولى، بيروت-لبنان، 1426هـ/2005م.
- الغزالي، أبو حامد، إحياء علوم الدين، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، 2008.
- المعيري، زين الدين علي، سراج القلوب وعلاج الذنوب على هامش قوت القلوب في معاملة المحبوب لأبي طالب المكي، دار الفكر.
- المكي، أبو طالب محمد بن أبي الحسن، قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المرید إلى مقام التوحيد، دار الفكر، لا ت.

النظيفي، محمد فتاح بن عبد الواحد، الدرة الخريدة في شرح الياقوتة الفريدة، دار الفكر، 1984.

النووي، الحافظ محيي الدين أبو زكريا، رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين، دار إحياء الكتب العربية، 1918.

النووي، محيي الدين أبو زكريا يحيى بن شرف، صحيح مسلم بشرح النووي، دار الفجر للتراث، القاهرة، الطبعة الثامنة، 2013.

الهاشمي، أحمد، مختار الأحاديث النبوية والحكم المحمدية، دار الفكر، بيروت-لبنان، 2004.

منهج الشيخ أحمد بمب امباكي (ت: 1346هـ/1927م)

في تقرير العقيدة الأشعرية

الدكتور شيخنا خديم امباكي مرتضى فاضل

قسم الدراسات الإسلامية، كلية الدراسات الإسلامية والعربية

جامعة الشيخ أحمد الخديم، طوبى، السنغال

ملخص

علم التوحيد يعد من أشرف العلوم بل هو أجلها وأفضلها على الإطلاق؛ لأن أفضلية العلم تعرف بقدر المعلوم وجلالته وعظمته، ولا يوجد شيء أجل وأعظم من البارئ سبحانه وتعالى.

ونظرا لأهمية هذا العلم وشرفه، وحاجة الناس إليه، فقد أفرد العلماء بمصنفات مستقلة تبين أهميته ومكانته، ومن بين هؤلاء العلماء، العلامة السنغالي المبرز الشيخ أحمد بمب البكي — رحمه الله تعالى — المشهور بالشيخ الخديم مؤسس «الزاوية المريدية» بالسنغال الذي بذل نفسه ونفيسه لغرس العقيدة الإسلامية الصحيحة في نفوس المسلمين، تصنيفا وتأليفا وإقراءً ونشرًا، باعتبارها الأصل الأصيل والركن الركين لهذا الدين.

أبين في هذا البحث منهج الشيخ أحمد بمب في العقيدة من خلال كتاباته، ومدى تطابق منهجه مع منهج أهل السنة والجماعة في بعض المسائل العقدية التي كثر فيها الجدل والقييل والقال.

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه أجمعين،
ومن تبعهم بإيمان إلى يوم الدين. وبعد:

فإن علم التوحيد يعد من أشرف العلوم بل هو أجلها وأفضلها على الإطلاق؛ لأن
أفضلية العلم تعرف بقدر المعلوم وجلالته وعظمته، ولا يوجد شيء أجل وأعظم من
الباري سبحانه وتعالى.

وقال ابن القيم -رحمه الله-: «ولما كان العلم للعمل قرينا وشافعا وشرفه لشرف
معلومه تابعا كان أشرف العلوم على الإطلاق علم التوحيد...»⁽¹⁾. ويضيف ابن أبي
العز الحنفي قائلا: «علم أصول الدين أشرف العلوم، إذ شرف العلم بشرف المعلوم،
وهو الفقه الأكبر بالنسبة إلى فقه الفروع، ولهذا سمي الإمام أبو حنيفة -رحمه الله- ما
قاله وجمعه في أوراق من أصول الدين (الفقه الأكبر)، وحاجة عباد الله إليه فوق كل
حاجة، وضرورتهم إليه فوق كل ضرورة؛ لأنه لا حياة للقلوب ولا نعيم ولا طمأنينة إلا
بأن تعرف ربها ومعبودها وفاطرها بأسمائه وصفاته وأفعاله، ويكون مع ذلك كله أحب
إليها مما سواه»⁽²⁾.

ويقول الشيخ الخديم السنغالي -رحمه الله-:

وَأَفْضَلُ الْعُلُومِ بِالْإِطْلَاقِ تَوْحِيدُ رَبِّنَا عَلَى اتِّفَاقِ⁽³⁾
وَبَعْدُ فَالتَّوْحِيدُ رَأْسُ الْمَالِ وَرُوحُ دِينِ اللَّهِ ذِي الْجَلَالِ⁽⁴⁾

(1) إعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن قيم الجوزية، ت: محمد عبد السلام إبراهيم، دار الكتب العلمية، بيروت،
ط1، 1411هـ / 1991م، (4/1).

(2) مقدمة شرحه على العقيدة الطحاوية، ت: أحمد محمد شاكر، ص: 5.

(3) مسالك الجنان للشيخ الخديم، دراسة وتحقيق: دائرة روض الرياحين، طوبى - السنغال، مطبعة المعارف الجديدة
بالرباط - المغرب، الطبعة الأولى، 1436هـ/2014م، (ص: 44).

(4) جذبة الصغار للشيخ الخديم، ضمن ديوان العلوم الدينية، للشيخ الخديم، جمع وعناية الرابطة الخدمية للباحثين
والدارسين، دار الأمان للنشر والتوزيع، المغرب، ط2، 1441هـ/2020م، (ص: 161).

لَكِنَّمَا التَّوْحِيدُ خَيْرُ الدُّخْرِ لِلشَّخْصِ فِي الْقَبْرِ وَيَوْمَ النَّشْرِ
لَأَنَّهُ عَنِ غَيْرِهِ يُعْنِي وَلَا يَدُونُهُ يُفِيدُ عِلْمٌ مُسَجَّلًا⁽⁵⁾

ونظرا لأهمية هذا العلم وشرفه، وحاجة الناس إليه، فقد أفرد العلماء بمصنفات مستقلة تبين أهميته ومكانته، ومن بين هؤلاء العلماء، العلامة السنغاليّ المبرز الشيخ أحمد بمب البكي - رحمه الله تعالى - المشهور بالشيخ الخديم مؤسس «الزاوية المريدية» بالسنغال الذي بذل نفسه ونفيسه لغرس العقيدة الإسلامية الصحيحة في نفوس المسلمين، تصنيفا وتأليفا وإقراءً ونشرًا، باعتبارها الأصل الأصيل والركن الركين لهذا الدين. وعليه، فإن هذا البحث يتناول منهج الشيخ الخديم في تقرير العقيدة الأشعرية ليكون مشاركتي في مجلة الدراسات العربية والإسلامية لجامعة شيخ أنت جوب بدار/ السنغال، العدد الثاني/ السنة الثانية 2023م بعنوان:

منهج الشيخ الخديم في تقرير العقيدة الأشعرية

أود أن أبين في هذا البحث منهج الشيخ أحمد بمب في العقيدة من خلال كتاباته، ومدى تطابق منهجه مع منهج أهل السنة والجماعة في بعض المسائل العقدية التي كثر فيها الجدل والقليل والقال. ونذكر هنا بعض أمثلة لذلك باختصار شديد.

1- مسألة زيادة الإيمان ونقصانه:

فالآيات القرآنية قد نطقت في مواضع كثيرة من الكتاب العزيز بزيادة الإيمان، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تَلَّيْت عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [الأنفال: 2]، وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزادتهم إيمانًا﴾ [التوبة: 124]، وغير ذلك. وهذه الآيات تدل أيضاً

(5) مواهب القدوس للشيخ الخديم، ضمن ديوان العلوم الدينية، للشيخ الخديم، (ص: 62).

على النقصان؛ لأن ما زاد كان قبل الزيادة ناقصاً، وكل ما كان قابلاً للزيادة فهو قابل للنقصان.

ووردت في السنة أحاديث صحيحة تدل على زيادة الإيمان ونقصانه، ومن ذلك حديث أقلّ الإيمان المنجي في الآخرة في قول النبي ﷺ: «أخرجوا من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان..»⁽⁶⁾. قال ابن حجر في «الفتح»: «فالإيمان عند السلف هو اعتقاد بالقلب ونطق باللسان وعمل بالأركان، وأرادوا بذلك أن الأعمال شرط في كماله، ومن هنا نشأ لهم القول بالزيادة والنقص. والمرجئة قالوا: هو اعتقاد ونطق فقط. والكرامية قالوا: هو نطق فقط. والمعتزلة قالوا: هو العمل والنطق والاعتقاد، والفارق بينهم وبين السلف أنهم جعلوا الأعمال شرطاً في صحته، والسلف جعلوها شرطاً في كماله»⁽⁷⁾. فأهل السنة مُتَّفِقُونَ على أن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية.

فقد قرّر الشيخ الخديم رضي الله عنه مذهب أهل السنة في هذه المسألة، فبيّن في أكثر من موضع أن الإيمان اعتقاد وقول وعمل، وأنه يزيد وينقص، ومن ذلك قوله:

وَوَجِبَ الْإِيمَانُ أَنَّهُ⁽⁸⁾ عَلَى ثَلَاثَةِ الْأَقْسَامِ عِنْدَ مَنْ عَلَا
قَوْلٌ وَإِخْلَاصٌ وَثَالِثٌ عَمَلٌ فَمَنْ حَوَى جَمِيعَهَا نَالَ الْأَمْلَ
يَزْدَادُ يَنْقُصُ بِزَيْدِ الْعَمَلِ وَنَقْصِهِ فَرُدُّ مَعَ التَّكْمُلِ
بِالْقَوْلِ وَالنِّيَّةِ فِي خَيْرِ السُّنَنِ ثَرِي سَعَادَةً تُلَازِمُ الْإِيمَانَ⁽⁹⁾

⁽⁶⁾ البخاري: الصحيح: كتاب: الإيمان، باب: تفاضل أهل الإيمان، ح: 22 (1/ 91) مع فتح الباري لابن حجر العسقلاني، لابن حجر العسقلاني، الناشر: دار المعرفة - بيروت.

⁽⁷⁾ فتح الباري، (1/ 46).

⁽⁸⁾ يقصد الإيمان.

⁽⁹⁾ المغني في معاني فيض الغني المغني للباحث شيخنا خديم امباكي، ط 1، 1439هـ/2018م، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، (ص: 140).

2- مسألة خلق الأفعال:

وهذه المسألة من المسائل التي أثارت نقاشا كبيرا وجدالا واسعا بين الفرق الكلامية من قدرية، ومعتزلة، وجبرية، وأشعرية قديما وحديثا، وكثر فيها القيل والقال، ولكن الذي عليه الجمهور أن الله تعالى هو الخالق لكل شيء، وهو رب العباد وخالقهم وخالق أعمالهم، كما قال سبحانه: ﴿قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الرعد:16]، ولفظ (كل) من ألفاظ العموم، وقوله: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصفات:96].

قال العلامة محمد اليدالي الديباني الشنقيطي في تفسير هذه الآية: «وهذه الآية عندهم قاعدة في خلق الله تعالى أفعال العباد، وهو مذهب أهل السنة، خلافا للمعتزلة. قالوا: إن الله يخلق العبد، والعبد يخلق أفعاله»⁽¹⁰⁾. «فإن الله تعالى هو الذي يخلق أفعال الإنسان عند ما يعزم الإنسان على أن يفعل ذلك الفعل، غير أن أفعال الإنسان تُعتبر من كسبه، وهي منسوبة إليه مجازا، ونسبتها إلى الله نسبة خلق وإيجاد، والإنسان على أساس سعيه واختياره يجازى على أفعاله جزاء وفاقا»⁽¹¹⁾. خلافا للجبرية الذين يقولون بأن الإنسان مُجَبَّرٌ على أفعاله، والقدرية القائلين بأن الله لا يخلق أفعال الإنسان الاختيارية، وإنما يخلقها الإنسان.

والشيخ الحديم - رحمه الله - قد كشف الستار عن هذه المسألة في الأبيات التالية:

وَأَجْعَلَ مِنَ الْمُحَالِ خَلْقَ شَيْئًا بِنَفْسِهِ تَفْزُ بِخَيْرِهِ
وَأَجْعَلَ مِنَ الْوَاجِبِ كَوْنَ اللَّهِ رَبِّ الْعِبَادِ لَا تَمَلْ لِإِلَهِ

⁽¹⁰⁾ الذهاب الإبريز في تفسير كتاب الله العزيز، محمد سعيد اليدالي الديباني، تحقيق وتصحيح: الراجل بن أحمد سالم اليدالي، ط1، 2014، (6/182).

⁽¹¹⁾ فتح المجيد على نظم عبد الله بن الحاج أحماء الله الشنقيطي لرسالة بن أبي زيد القيرواني، للمؤلف الأمانة وُلد إبراهيم، ط1، 1423هـ 2002م، مطبعة المنار، نواكشوط. (ص:80).

خَلَقَهُمْ وَخَلَقَ الْأَعْمَالَ وَفَدَّرَ الْأَجَالَ وَالْأَمَالَ⁽¹²⁾
وقال أيضا:

لَهُ الْبَرَايَا لَهُ أَفْعَالُهُمْ وَلَهُ جَلَّ الْوُجُودُ الَّذِي قَدْ زَانَهُ الْقَدَمُ⁽¹³⁾

3- مسألة الأسماء والصفات:

فإذا كانت الجهمية قد نفوا الأسماء وما دلَّت عليه من معانٍ وأحكام، وأثبتتها المعتزلة دون معانيها، فقالوا: عليم بلا علم، سميع بلا سمع، متكلم بلا كلام... إلخ، وجعل المشبهة صفات الله تعالى كصفات الحوادث، فإن أهل السنة والجماعة يُثبتون أسماء الله الحسنى، وما دلَّت عليه من الصفات العليا.

وأما صفاته سبحانه وتعالى فقد تواترت الأخبار فيها عن النبي صلى الله عليه وسلم مُوافقةً للقرآن الكريم. «والذي عليه أهل السنة وأئمة الفقه والأثر في هذه المسألة وما أشبهها، الإيمان بما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم فيها والتصديق بذلك وترك التحديد والكيفية في شيء منه»⁽¹⁴⁾.

ورأي الشيخ الخديم - رحمه الله - في تقرير الأسماء والصفات يوافق مذهب أهل السنة والجماعة في إثبات الأسماء لله تعالى وإثبات ما دلَّت عليه من معانٍ وأحكام. حيث قال:

وَلَمْ تَزَلْ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَفُزْتُ فِيهَا بِالْمَقَرِّ الْأَسْنَى
وَلَمْ تَزَلْ لَهُ صِفَاتُهُ الْعُلَى مِثْلَ أَسْمَائِهِ تَعَالَى وَعَلَى

⁽¹²⁾ المغني في معاني فيض الغني المغني، مرجع سابق، (ص: 95).

⁽¹³⁾ من قصيدة للشيخ الخديم مطلعها: «بشرى لنا قد أتانا الجود والكرم».

⁽¹⁴⁾ التمهيد لابن عبد البر النمري، تحقيق: مصطفى بن أحمد العلوي، محمد عبد الكبير البكري، الناشر: وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية - المغرب، عام النشر: 1387 هـ (7/ 147).

أَسْمَاؤُهُ قَدِيمَةٌ لَا حَادِثَةَ وَلِي قَادَتِ الْمُنَى فِي الْحَادِثَةِ (15)

وقوله:

لَا يَبْلُغُ الْوَاصِفُ وَصْفًا قَدْ حَوَى بَاقِي حَفِيطٌ قَدْ يَجُودُ بِالْحَيَا (16)

وقوله:

سُبْحَانَ مَنْ أَعْجَزَ خَلْقًا دَرْكُهُ وَشُكْرُهُ عَزَّ وَجَلَّ مُلْكُهُ
فَكُلُّ مَا يَخْطُرُ بِالْبَالِ أَبَدٌ فَبِخِلَافِ ذَاكَ رَبُّنَا الْأَعْدُ (17)

4- مسألة خلق القرآن:

وقد اختلف العلماء والمتكلمون خصوصا في تفاصيل هذه المسألة اختلافا لا يسع المقام لسرد تلك التفاصيل هنا. وقد لخصها ابن حجر في الفتح في قوله: «ومحصل ما نقل عن أهل الكلام في هذه المسألة خمسة أقوال: الأول: قول المعتزلة إنه مخلوق. والثاني: قول الكلابية إنه قديم قائم بذات الرب ليس بحروف، ولا أصوات، والموجود بين الناس عبارة عنه لا عينه. والثالث: قول السالمية إنه حروف، وأصوات قديمة الأعين، وهو عين هذه الحروف المكتوبة والأصوات المسموعة. والرابع: قول الكرامية إنه محدث لا مخلوق (...) والخامس: أنه كلام الله غير مخلوق، إنه لم يزل يتكلم إذا شاء، نص على ذلك أحمد في كتاب الرد على الجهمية وافترق أصحابه فرقتين، منهم من قال هو لازم لذاته والحروف والأصوات مقترنة لا متعاقبة ويسمع كلامه من شاء، وأكثرهم قالوا إنه متكلم بما شاء متى شاء، وأنه نادى موسى عليه السلام حين كلمه ولم يكن ناداه من قبل.

(15) المغني في معاني فيض الغني المغني، (ص: 79).

(16) المرجع السابق، (ص: 60).

(17) مواهب القدوس، ضمن ديوان العلوم الدينية، (ص: 63).

والذي استقر عليه قول الأشعرية أن القرآن كلام الله غير مخلوق، مكتوب في المصاحف محفوظ في الصدور، مقروء باللسنة. قال الله تعالى: ﴿فَأَجْرُهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾، وقال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾. وفي الحديث المتفق عليه عن ابن عمر كما تقدم في الجهاد: «لا تسافروا بالقرآن إلى أرض العدو كراهية أن يناله العدو»، وليس المراد ما في الصدور، بل ما في الصحف. وأجمع السلف على أن الذي بين الدفتين كلام الله (...). ومن شدة اللبس في هذه المسألة كثر نهي السلف عن الخوض فيها واكتفوا باعتقاد أن القرآن كلام الله غير مخلوق ولم يزيدوا على ذلك شيئا وهو أسلم الأقوال»⁽¹⁸⁾.

وقد قرر الشيخ الخديم رضي الله عنه مذهب أهل السنة في المسألة في بيتين، فقال:

وَأَنَّ قُرْآنَ الَّذِي يُذَرِّي الْغُيُوبَ كَلَامَ هَادٍ قَدْ يُزْخِرُ الْغُيُوبَ
لَيْسَ بِمَخْلُوقٍ وَلَيْسَ بِصِفَةٍ خَلْقِي، وَجَادِي بِالْمُتَّصِفَةِ⁽¹⁹⁾

5- مسألة رؤية الله تعالى:

والمعتزلة ينفون جواز رؤية الله تعالى مطلقا، في حين أن المشبهة لا ينفون جواز رؤيته تعالى بل يُكَيِّفُونَ الرؤية، ولكن أهل السنة والجماعة يخالفونهم ويشبّون جواز الرؤية بلا تكييف ويستدلون بالعقل والنقل. قال أبو الحسن الأشعري: «وندين بأن الله يرى في الآخرة بالأبصار كما يرى القمر ليلة البدر، يراه المؤمنون كما جاءت الروايات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ونقول: إن الكافرين محبوبون عنه إذا رآه المؤمنون في الجنة كما قال سبحانه: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: 15]، وأن موسى

⁽¹⁸⁾ فتح الباري، (13/ 493-494)، مرجع سابق.

⁽¹⁹⁾ المغني، (ص: 84).

عليه السلام سأل الله عز وجل الرؤية في الدنيا، وأن الله تعالى تجلّى للجبل فجعله دكا، فأعلم بذلك موسى أنه لا يراه في الدنيا»⁽²⁰⁾.

ويضيف أبو بكر الباقلائي في «الإنصاف» قائلا: «ويجب أن يعلم: أن الرؤية جائزة عليه سبحانه وتعالى، من حيث العقل، مقطوع بها للمؤمنين في الآخرة؛ تشريفاً لهم وتفضلاً، لوعده الله تعالى لهم بذلك. والدليل على جوازها من حيث العقل: سؤال موسى عليه السلام، حيث قال: «رب أرني أنظر إليك». ويستحيل أن يسأل نبي من أنبياء الله تعالى مع جلالة قدره وعلو مكانه ما لا يجوز عليه سبحانه، ولولا أنه اعتقد جوازها لما سألها، ولأنه تعالى علقها باستقرار الجبل، ومن الجائز استقرار الجبل، ويدل عليه أيضاً: أنه موجود، والموجود يصح أن يرى. وأما الدليل على ثبوتها من طريق الكتاب: قوله تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾ [الأحزاب: 44]، واللقاء إذا قرن بالتحية لا يقتضي إلا الرؤية»⁽²¹⁾.

وقال الشيخ الخديم رضي الله عنه مُقَرِّراً مذهب أهل السنة في المسألة:

وَوَجِبَ اعْتِقَادُنَا أَنَّ الْجَمِيلَ خَلَقَ جَنَّةً لِفَاعِلِي جَمِيلِ
أَعْدَهَا دَارَ خُلُودٍ أَبَدًا لِلْمُؤْمِنِينَ لَا يَرَوْنَ كَبَدًا
وَأَتَمُّ أَكْرَمَهُمْ بِالنَّظَرِ لَوَجْهِهِ الْكَرِيمِ فِيهَا فَانْظُرِ⁽²²⁾

⁽²⁰⁾ الإبانة، أبو الحسن الأشعري، تح: عباس صباغ، دار النفائس، الطبعة الأولى: 1414هـ—1994م، (ص: 38).

⁽²¹⁾ الإنصاف، أبو بكر الباقلائي، تقديم محمد زاهد بن الحسن الكوثري، عناية عزت العطار الحسيني، مكتب نشر الثقافة الإسلامية، طبعة: 1369هـ/1950م، (ص: 42).

⁽²²⁾ المغني، (ص: 123).

6- وجوب الصلاح والأصلح:

والعدل أصل من الأصول الخمسة التي بنى عليها المعتزلة مذهبهم، ويندرج تحت هذا الأصل ما يُسمُّون بالصلاح والأصلح. «يريد المعتزلة بالصلاح والأصلح أنه يجب على الله- تعالى الله عن قولهم- رعاية مصالح العباد وفعلها لهم، واختلفوا في وجوب الأصلح لهم، ويقصدون بالأصلح: الأفضل في العاجلة والعاقبة»⁽²³⁾. ويقول الشهرستاني- في معرض بيان رأيهم في المسألة-: «واتفقوا على أن الله تعالى لا يفعل إلا الصلاح والخير، ويجب من حيث الحكمة رعاية مصالح العباد، وأما الأصلح... ففي وجوبه خلاف عندهم»⁽²⁴⁾.

وأهل السنة والجماعة يخالفونهم في هذه المسألة؛ لأن «الإيجاب عليه سبحانه وتعالى والتحريم بالقياس على خلقه فهذا قول القدريّة، وهو قول مبتدع، مخالف لصحيح المنقول، وصريح المعقول. وأهل السنة اتفقوا على أنه سبحانه خالق كل شيء وربّه ومليكه، وأن ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأن العباد لا يوجبون عليه شيئاً...»⁽²⁵⁾.

وقد بيّن الشيخ الخديم- رحمه الله- في أكثر من موضع بأن الله تعالى لا يجب عليه شيء، وأن فعله يدور بين الفضل والعدل؛ خلافاً للمعتزلة القائلين بوجوب الصلاح والأصلح وبوجوب إثابة المطيع ومعاقبة العاصي. وقد ردّ على المعتزلة في هذه المسألة في قوله:

وَرَدُّ رَأْيِ مَنْ عَلَيْهِ أُوجِبَ صَالِحًا أَوْ أَصْلَحَ تُرْزَقُ أَدَبًا

⁽²³⁾ انظر تفصيل المسألة في كتاب (المعتزلة وأصولهم الخمسة وموقف أهل السنة منها) للدكتور عواد المعتقد، مكتبة الرشد، الرياض، ط2، 1413هـ/1995، (ص: 97. ص: 202).

⁽²⁴⁾ الملل والنحل للشهرستاني، ت: محمد سيد كيلاي، دار المعرفة، بيروت، 1404هـ، (44/1).

⁽²⁵⁾ اقتضاء الصراط المستقيم لابن تيمية، تحقيق: محمد حامد الفقي، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، ط2، 1369هـ، (ص: 409).

فَكُلُّ مَا فَعَلَهُ الْجَلِيلُ فَذَاكَ مُطْلَقًا هُوَ الْجَمِيلُ
لِأَنَّ كُلَّ نِعْمَةٍ مِنْهُ أَتَتْ عَلَى عِبَادِهِ فَتَفْضِيلٌ ثَبَتَ
وَكُلُّ نِعْمَةٍ عَرَتْ عَبْدًا أَبَدَ فَإِنَّهَا عَدْلٌ إِلَيْنَا الصَّمَدُ⁽²⁶⁾

وقال أيضا:

وَأَنَّهُ سُبْحَانَهُ لَا يَجِبُ عَلَيْهِ شَيْءٌ بَلْ لِفَضْلٍ يَهَبُ⁽²⁷⁾

7- مرتكب الكبيرة:

ومذهب أهل السنة والجماعة أن مات من المسلمين من غير توبة من ذنب ارتكبه، فأمره مُفَوَّضٌ إلى الله، إن شاء عَذَّبَ، وإن شاء عفا له، وإن عَذَّبَهُ فَإِنَّهُ لَا يُجَلِّدُهُ فِي النَّارِ، «خلافًا للخوارج حيث قالوا: كل ذنب كبيرة، وكل كبيرة مُحِيطَةٌ للعمل ومرتكبها كافر. وخلافًا للمعتزلة حيث قالوا: كل كبيرة مُحِيطَةٌ للعمل ومرتكبها له منزلة بين منزلتين، لا يسمى مؤمنا ولا كافرا، وإنما يقال له فاسق، وهذا بناء منهم على تحسين العقل وتقبيحه»⁽²⁸⁾. ويقولون أيضا بأن مرتكب الكبيرة مُخَلَّدٌ فِي النَّارِ، وخلافًا للمرجئة القائلين بأنه لا يضرّ مع الإيمان معصية.

ومن أدلة أهل السنة قول النبي صلى الله عليه وسلم: «يقول الله عز وجل: ...ومن لقيني بقراب الأرض خطيئة لا يشرك بي شيئا، لقيته بمثلها مغفرة»⁽²⁹⁾. قال الإمام ابن رجب: «فمن جاء مع التوحيد بقراب الأرض، وهو ملؤها أو ما يقارب

⁽²⁶⁾ مواهب القدوس، ضمن ديوان العلوم الدينية، (ص: 72-73).

⁽²⁷⁾ نزود الصغار، ضمن ديوان العلوم الدينية، (ص: 513).

⁽²⁸⁾ كفاية الطالب الرباني على رسالة ابن أبي زيد القيرواني، للعلامة علي بن خلف المصري مع حاشية العدوي، ط: 1، 1407هـ/1987م، مطبعة المدني، مصر. (1/191).

⁽²⁹⁾ صحيح مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الذكر والدعاء والتقرب إلى الله تعالى، ت: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ب. ت، (4/2068) ح 2687.

خطايا لقيه الله بقراها مغفرة؛ لكن هذا مع مشيئة الله عز وجل، فإن شاء غفر له، وإن شاء أخذه بذنوبه ثم كان عاقبته أن لا يُخلَّد في النار بل يخرج منها ثم يدخل الجنة»⁽³⁰⁾. والسلف مُجمعون على أن المؤمن بالله تعالى وسائر ما دعاه النبي صلى الله عليه وسلم إلى الإيمان به لا يخرج عنه شيء من المعاصي، ولا يحبط إيمانه إلا الكفر، وأن العصاة من أهل القبلة مأمورون بسائر الشرائع، غير خارجين عن الإيمان بمعاصيهم»⁽³¹⁾.

وقال الشيخ الخديم رضي الله عنه:

وَلَمْ تَشِئْ يَصِيرُ مَنْ أَيْ تَوْبًا لِمَنْ خَلَقَ أُمًّا وَأَبًا
وَكُلُّ ذَنْبٍ غَيْرُ شِرْكَ يُغْفَرُ وَالشِّرْكَ لَا يُغْفَرُ لَا يُكْفَرُ
إِلَّا بِتَوْبَةٍ نَصُوحٍ وَهِيَ لَا تَرْكُ عَصِيَانًا دَعَ التَّحِيْلَا
وَمَنْ حَوَى شَيْئًا مِنَ الْإِيمَانِ بِالْأَكْرَمِ الْمُكْرَمِ الرَّحْمَنِ
فَلَا يَكُونُ خَالِدًا فِي النَّارِ فَجَزْؤُهُ يُخْرِجُهُ مِنَ نَارِ
وَكَامِلُ الْإِيمَانِ لَيْسَ يَدْخُلُ فِي نَارٍ مِنْ خَيْرِ الْجَنَانِ يُدْخَلُ

8- التكفير:

ومسألة التكفير من المسائل الخطيرة في الإسلام؛ ولذلك ينبغي للمسلم ألا يتسرع إلى تكفير أحد من إخوانه المسلمين؛ لقول النبي صلى الله عليه وسلم: «مَنْ قَالَ لِأَخِيهِ: يَا كَافِرُ؛ فَقَدْ بَاءَ بِهَا أَحَدُهُمَا»⁽³²⁾. وذكر الإمام عبد القاهر البغدادي أن أهل السنة والجماعة «لا يُكْفَرُ بعضهم بعضًا، وليس بينهم خلاف يوجب التبرُّي والتكفير،

⁽³⁰⁾ جامع العلوم والحكم، ط1، 1425هـ/2004م دار الأخيار، السعودية، (ص:374)

⁽³¹⁾ رسالة إلى أهل الثغر للإمام أبي الحسن الأشعري، ت: عبد الله شاکر محمد الجندي، مكتبة العلوم والحكم، دمشق، ط1، 1988، (ص: 274).

⁽³²⁾ صحيح البخاري مع الفتح، (379/1)، ح92.

فهم إذن أهل الجماعة القائمون بالحق، والله تعالى يحفظ الحق وأهله، فلا يقعون في تناؤدٍ وتناقض، وليس فريق من فرق المخالفين إلا وفيهم تكفير بعضهم لبعض وتبري بعضهم من بعض؛ كالخوارج والروافض والقدرية؛ حتى اجتمع سبعة منهم في مجلس واحد فافترقوا عن تكفير بعضهم بعضاً»⁽³³⁾.

وقال الإمام أبو الحسن الأشعري لأحد جلسائه حين يحتضر: «أشهد على أي لا أكفر أحدا من أهل هذه القبلة، لأن الكل يشيرون إلى معبود واحد، وإنما هذا كله اختلاف العبارات»⁽³⁴⁾. ويضيف محمد رشيد رضا إلى أن «بدعة التكفير قد أحدثها غلاة المبتدعة بتكفيرهم من يخالف بدعتهم وأن مما امتاز به أهل السنة عدم تكفير أحد من أهل القبلة، وقد اشتهر أن العمدة عندهم في التكفير هو جحود شيء مجمع عليه معلوم من الدين بالضرورة ممن نشأ بين المسلمين ولم يكن حديث عهد بالإسلام، أي يحجده عالماً به أو جاهلاً غير معذور بجهله، واشتروا أيضاً أن يكون غير متأول، فإن من جحد ذلك الشيء بتأويل ظهر له لا يكون كافراً...»⁽³⁵⁾.

وقرر الشيخ الخديم المسألة في قوله:

وَكُلُّ مَنْ أَنْكَرَ شَيْئاً قَدْ ثَبَتَ مِنَ الضَّرُورَةِ الَّتِي قَدْ عَلِمَتْ
فَكَاغِرٌ، أَمَا الَّتِي لَمْ تُعْلَمَ ضَرُورَةٌ فَمَنْ لِنُكْرِهِا انْتَمَى
فَلَيْسَ بِالْكَافِرِ بَلْ يُعَلَّمُ هَذَا الَّذِي نَقَلَهُ مَنْ عَلِمُوا⁽³⁶⁾
وقال أيضاً:

⁽³³⁾ الفرق بين الفرق، الإمام عبد القاهر البغدادي (ت429هـ) تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، مكتبة دار التراث - القاهرة، طبعة 2007. (ص: 365-366).

⁽³⁴⁾ تبين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام الأشعري، لابن عساكر الدمشقي، (ص: 149).

⁽³⁵⁾ مجلة المنار، للشيخ محمد رشيد رضا، المكتبة الشاملة (260/4).

⁽³⁶⁾ منظومة تزود الشبان، ضمن ديوان العلوم الدينية، (ص: 543).

وَحَرِّمُوا تَكْفِيرَ ذِي اسْتِغْبَالٍ لِلذَّنْبِ فَالْعُفْرَانُ ذُو اسْتِغْبَالٍ⁽³⁷⁾

ومن اللطائف أن أبا زيد عبد الرحمن الأخضري ذكر في مختصره المشهور في الفقه المالكي أن من يصلي بلا طهارة كافر، وقال: «وَمَنْ صَلَّى بِغَيْرِ وُضُوءٍ عَامِدًا فَهُوَ كَافِرٌ وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ» (ص:6)، لكن الشيخ - رحمه الله تعالى - في نظمه للمختصر حكمه بفسقه وقال:

وَمَنْ بِلَا طَهَرٍ يُصَلِّي أَبَدًا بِلَا ضَرُورَةٍ فَذُو فَسَقٍ بَدَا⁽³⁸⁾

9- فضل الصحابة وعدالتهم

فإذا كانت الشيعة الرافضة يكفرون أو يخطئون أكثر الصحابة وخصوصا كبارهم ويعتدونهم خائنين لأمانة الرسول صلى الله عليه وسلم وينصبون لهم العداء ويطعنون فيهم، فإن «أهل السنة اتفقوا على وجوب منع الطعن على أحد من الصحابة بسبب ما وقع لهم من حروب ولو عُرف المحق منهم؛ لأنهم لم يقاتلوا في تلك الحروب إلا عن اجتهاد وقد عفا الله عن المخطئ في الاجتهاد بل ثبت أنه يؤجر أجرا واحدا وأن المصيب يؤجر مرتين»⁽³⁹⁾.

وقد وردت في فضائل الصحابة وعدالتهم نصوص كثيرة؛ ومنها قوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ...﴾ [الفتح:18]، وفي هذه الآية دليل على عدالتهم؛ لأن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين كما في قوله تعالى: ﴿إِنْ اللَّهُ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة:97] وقد رضي الله عن الصحابة الكرام.

⁽³⁷⁾ المغني، (ص:144).

⁽³⁸⁾ الجواهر النفيس، ضمن ديوان العلوم الدينية، (ص:269).

⁽³⁹⁾ فتح الباري، (34/13).

ومن النصوص قوله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ والمهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه... ﴿[التوبة: 101]﴾.

وقال الحافظ ابن كثير - رحمه الله - في تفسير الآية: «فقد أخبر الله العظيم أنه رضي عن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان، فإيا ويل من أبغضهم أو سبهم، أو أبغض أو سب بعضهم ولا سيما سيد الصحابة بعد الرسول صلى الله عليه وسلم وخيرهم وأفضلهم أعني الصديق الأكبر والخليفة الأعظم أبا بكر بن أبي قحافة، فإن الطائفة المخدولة من الرافضة يعادون أفضل الصحابة، ويغضونهم ويسبونهم عياذا بالله من ذلك، وهذا يدل على أن عقولهم معكوسة، وقلوبهم منكوسة، فأين هؤلاء من الإيمان بالقرآن إذ يسبون من رضي الله عنهم؟! وأما أهل السنة فهم يترضون عمن رضي الله عنه ويسبون من سبه الله ورسوله، ويوالون من يوالي الله، ويعادون من يعادي الله، وهم متبعون لا مبتدعون ويقتدون ولا يبتدون، ولهذا هم حزب الله المفلحون وعباده المؤمنون» (40).

ومما ورد في فضلهم قول النبي ﷺ: «لا تسبوا أصحابي، فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مدّ أحدكم ولا نصيفه» (41). ولا يجوز أن يذكر أحد من الصحابة إلا بالتي هي أحسن، ويجب الإمساك عما شجر ووقع بينهم من النزاع والقتال، خشية أن يُساء بهم الظن. و«سئل بعض الأفاضل عما جرى بين عليٍّ ومعاوية فقال للسائل: تلك دماء قد طهر الله منها أيدينا، فلا نلطخ بها ألسنتنا» (42).

وقال الشيخ الخديم - رحمه الله -:

وَأَفْضَلُ الصَّحَابَةِ الْمُتَّبِعَةُ لِذِي الْمَازِيَا الْخُلَفَاءُ الْأَرْبَعَةُ

(40) تفسير ابن كثير، ط2، تحقيق: سامي محمد بن سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع ب. ت. (4/ 203)

(41) صحيح البخاري مع الفتح، (34/7).

(42) فتح المجيد، (ص: 113).

صَدِّقْهُمْ عُمَرُ ذُو النُّورَيْنِ زَوْجُ الْبَتُولِ مَنْ نَفَى الْعَارَيْنِ
وَوَجَبَ الْإِمْسَاكَ عَمَّا شَجَرَا بَيْنَ الَّذِينَ دَوَّخُوا مِنْ فَجَرَا
إِذْ كُلُّ وَاحِدٍ عَلَى حَقِّ الْيَقِينِ عَلَيْهِمْ رِضْوَانُ مُرْقِي الْمُتَّقِينَ
وَأَذْكَرُ جَمِيعَهُمْ بِخَيْرِ الذِّكْرِ وَلَا تَكُنْ فِي أَبَدٍ ذَا نُكْرٍ (43)

وقد كان الشيخ الخديم رضي الله عنه يكنّ للصحابه الكرام محبة صادقة وخالصة
لوجه الله تعالى؛ لأن حب النبي صلى الله عليه وسلم- يستلزم محبة صحابته الكرام
الذين آووه ونصروه. وقد عبر عن محبته لهم في ثنايا قصائده والتنويه بمزاياهم ومناقبهم،
ومن ذلك قوله:

أَحَبُّي الدَّارَيْنِ صَحْبُ نَفَى يَحْمِ إِهْمِي لِغَيْرِي كُلِّ مَنْ لَيْسَ يَبْرَأُ (44)
وقوله

أَصْحَبَ رَسُولِ اللَّهِ إِيَّيْ خَدِيمُهُ مُحِبًّا لَكُمْ فِي اللَّهِ، وَاللَّهُ يَكْفُلُ (45)
وقوله:

أُسُودٌ عَلَى الْأَعْدَا مَصَابِيحُ فِي الدَّجَى وَكُلُّ شُجَاعٍ رَأْسٌ ذِي الْكُفْرِ يَجْزَأُ
أُسُودٌ مَتَى يَقْصِدُ هُمْ ذُو تَجَرُّا يَبُوءُ جُبًّا يَبْكِي وَيُمَحِّي التَّجَرُّا
أَيَا خَادِمِ الْمُخْتَارِ لَا تَنْسَ صَحْبَهُ فَمَنْ يَنْسَهُمْ فَالْمَدْحُ مَدْحٌ مُخْطَأُ

(43) المغني، (ص:155).

(44) من قصيدة «مقدمات الأمداح في مزايا المفتاح»، ضمن ديوان سعادات المريدين في أمداح خير المرسلين،
للشيخ الخديم، جمع وعناية الرابطة الخدمية للباحثين والدارسين، دار الأمان للنشر والتوزيع، المغرب، ط1،
1443هـ-2021م، (ص83-84).

(45) المرجع السابق.

خاتمة

- بعد هذه الدراسة للكتابات العقيدية للشيخ الخديم - رحمه الله تعالى - نود أن نسجل في الخاتمة النتائج التي توصلنا إليها ونلخصها فيما يلي:
- 1- لقد اكتشفنا من خلال هذا البحث ما كتبه الشيخ الخديم - رحمه الله تعالى - في التوحيد، وأنه قد جسّد فيه العقيدة الإسلامية الصحيحة - عقيدة أهل السنة والجماعة - على طريقة الأشاعرة في الاستدلال والبرهنة.
 - 2- أن هذه العقيدة تمتاز بالوسطية والاعتدال بين الفرق الأخرى حيث إنها تجمع بين العقل والنقل.
 - 3- أن الشيخ الخديم جمع في كتاباته هذه العقيدة وأحيائها، وحرّرها تحريراً بديعاً، وتصدى لصيانتها والدفاع عنها، ودعا الناس إلى اعتناقها والمحافظة عليها.
 - 4- أن علم التوحيد يحتل مكاناً واسعاً وحيزاً كبيراً في كتابات الشيخ الخديم - رحمه الله تعالى -، وذلك لأهمية العقيدة في الفرد المسلم، والله دره حين قال: «أَعْلَى الْمَقَامَاتِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى فِي هَذَا الزَّمَنِ إِسْكَانُ التَّوْحِيدِ فِي الْقُلُوبِ».
 - 5- أن الشيخ الخديم قد قرر مذهب أهل السنة والجماعة ومنهجهم في العقيدة تقريراً متميزاً في كتاباته، وخصوصاً في المسائل التي كثر فيها الخلاف بين الفرق الإسلامية.

المصادر والمراجع

- ابن أبي العز الحنفي، مقدمة شرح العقيدة الطحاوية، ت: أحمد محمد شاكر.
- ابن تيمية، اقتضاء الصراط المستقيم، تحقيق: محمد حامد الفقي، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، ط 2، 1369هـ.
- ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، الناشر: دار المعرفة، بيروت، 1379.
- ابن خلف عليّ المصري، كفاية الطالب الرباني على رسالة ابن أبي زيد القيرواني، مع حاشية العدوي، ط: 1، مطبعة المدني، مصر، 1407هـ/1987م.
- ابن رجب، جامع العلوم والحكم، ط 1، دار الأخيار، السعودية، 1425هـ/2004م.
- ابن عبد البر النمري، التمهيد، تحقيق: مصطفى بن أحمد العلوي، محمد عبد الكبير البكري، الناشر: وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، عام النشر: 1387 هـ.
- ابن عساكر الدمشقي، تبين كذب المفترى فيما نسب إلى الإمام الأشعري.
- ابن قيم الجوزية، إعلام الموقعين عن رب العالمين، ت: محمد عبد السلام إبراهيم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1411هـ / 1991م.
- ابن كثير، تفسير ابن كثير، تحقيق: سامي محمد بن سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط 2، ب. ت.
- الأشعري أبو الحسن، الإبانة، تح: عباس صباغ، دار النفائس، الطبعة الأولى، 1414هـ/1994م.
- الأشعري أبو الحسن، رسالة إلى أهل الثغر، ت: عبد الله شاكر محمد الجندي، مكتبة العلوم والحكم، دمشق، ط 1، 1988.
- الباقلائي أبو بكر، الإنصاف، تقديم محمد زاهد بن الحسن الكوثري، عناية عزت العطار الحسيني، مكتب نشر الثقافة الإسلامية، طبعة: 1369هـ/1950م.
- البغدادى عبد القاهر، الفرق بين الفرق، (ت429هـ) تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، مكتبة دار التراث - القاهرة، طبعة 2007.

- الشهرستاني، الملل والنحل، ت: محمد سيد كيلاي، دار المعرفة، بيروت 1404هـ.
- المعتق عواد، المعتزلة وأصولهم الخمسة وموقف أهل السنة منها، مكتبة الرشد، الرياض، ط2، 1413هـ/1995.
- اليدالي الديماني محمد سعيد، الذهب الإبريز في تفسير كتاب الله العزيز، تحقيق وتصحيح: الراحل بن أحمد سالم اليدالي، ط1، 2014.
- امباكي الشيخ الخديم، ديوان العلوم الدينية، جمع وعناية الرابطة الخدمية للباحثين والدارسين، دار الأمان للنشر والتوزيع، المغرب، ط2، 1441هـ-2020م.
- امباكي الشيخ الخديم، ديوان سعادات المريدين في أمداح خير المرسلين، جمع وعناية الرابطة الخدمية للباحثين والدارسين، دار الأمان للنشر والتوزيع، المغرب، ط1، 1443هـ/2021م.
- امباكي الشيخ الخديم، قصيدة «بشرى لنا قد أتانا الجود والكرم»، (مخطوطة).
- امباكي الشيخ الخديم، مسالك الجنان، دراسة وتحقيق: دائرة روض الرياحين، طوبى- السنغال، مطبعة المعارف الجديدة بالرباط- المغرب، الطبعة الأولى 1436هـ/2014م.
- امباكي شيخنا خديم، المغني في معاني فيض الغني المغني، ط1، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 1439هـ/2018م.
- رضا محمد رشيد، مجلة المنار، المكتبة الشاملة.
- مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، ت: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العرب، بيروت، ب. ت.
- وُلد إبراهيم الأمانة، فتح المجيد على نظم عبد الله بن الحاج أحماه الله الشنقيطي لرسالة بن أبي زيد القيرواني، ط 1، 1423هـ / 2002م، مطبعة المنار نواكشوط.

دور قسم اللغة العربية بكلية علوم وتكنولوجيا التربية والتكوين في تدريب الأساتذة

د. شيخ صامب

رئيس قسم اللغة العربية بكلية علوم وتكنولوجيا التربية والتكوين

جامعة شيخ أننا جوب بدكار

ملخص البحث

تهدف هذه المقالة إلى إبراز الأدوار الأساسية التي قام بها قسم اللغة العربية بكلية علوم وتكنولوجيا التربية والتكوين - التابعة لجامعة شيخ أننا جوب بدكار في مجال نشر اللغة العربية، وتكوين أساتذة تدريس مادة اللغة العربية في المدارس الفرنسية العمومية بالسنغال. ولكي تتحقق الورقة أهدافها، يرى الباحث ضرورة التطرق إلى نبذة يسيرة حول دخول اللغة العربية في السنغال، ثم التعريف بهذه الكلية، وتاريخ نشأتها ومهامها، وعدد أقسامها، والمدراء الذين تولوا إدارتها، ثم التعريف بقسم اللغة العربية فيها، وتاريخ نشأتها والمهام الملقاة على عاتقه، وما قام به من أدوار في الماضي والحاضر لنشر اللغة العربية في السنغال، وما ينتظر منه في المستقبل، كما تسلط الورقة الضوء على طبيعة المنهج التكويني، وكيفية تنفيذه، بجانبه النظري والتطبيقي، وأنماط التكوين في الكلية، بجانب بيان الصعوبات التي تواجه القسم، ثم أخيرا نتائج البحث وتوصياته، وعرض قائمة المراجع.

الكلمات الافتتاحية: المدرسة العليا، كلية العلوم، قسم اللغة العربية، التكوين، التبرص، التفتيش، التطبيق، النظري، رئيس، مدير، وكيل، عميد، مكون، المنهج.

مقدمة

إن الهدف من هذه المقالة، هو الوقوف على دور قسم اللغة العربية الرائد، في تكوين أساتذة اللغة العربية الذين يتولون تدريس اللغة العربية في المرحلة الإعدادية والثانوية في السنغال لأهمية اللغة العربية التي رحب بها المجتمع السنغالي الذي يكنّ لها الحب والاحترام، فأصبحت جزءاً لا يتجزأ من هويته الفكرية والثقافية، بسبب تطوعها مع ثقافة هذا المجتمع من خلال التطبيع والتأقلم، بفضل ترابطها مع الإسلام. وكل هذه الأمور، دفعت الشعب السنغالي ينظر إلى العربية كوسيلة أساسية للتعليم، و التعبير عن الأفكار والمشاعر، وإذا كانت كلية علوم وتكنولوجيا التربية والتكوين، تتولى مهمة تكوين وتأهيل أساتذة اللغة العربية بفضل قسمها العربي - من بين أقسامها - فإن ذلك سيكون سبباً في التطرق إلى عرض شيء من تاريخها ومهامها في التكوين، والفريق الإداري الذي تولى تدبير أمورها، ونشأة قسم اللغة العربية ودوره في التكوين بفضل رؤسائه الذين أداروه، و عرض مستويات التكوين، مع التطرق إلى جانبيه النظري والعملي، وطرح بعض صعوبات القسم، والحلول التي يمكن تقديمها، وأخيراً الخاتمة وقائمة المراجع.

أهداف المقال: يهدف المقال إلى الأمور الآتية:

1. عرض موجز لدور الكلية وقسم اللغة العربية في التكوين.
2. تقديم معلومات عامة تتعلق بالتكوين النظري والتطبيقي.
3. عرض بعض الصعوبات التي تواجه القسم.
4. البحث عن الحلول الممكنة لتلك الصعوبات.

أهمية المقال: تكمن أهميته، لما يمكن أن يقدمه البحث من حيث:

1. جمع المادة الخام المتوفرة عن قسم اللغة العربية لقلّة البحوث الصادرة عنه.
2. تسليط الضوء على دور قسم اللغة العربية بكلية علوم وتكنولوجيا التربية والتكوين في مجال التأهيل والتكوين.

مشكلة البحث:

تكمن مشكلة البحث في كونها تعالج موضوعا علميا في غاية الأهمية، مع قلة البحوث في هذا الموضوع بالذات، وترجع المشكلة في الأساس إلى غياب دور قسم اللغة العربية عن المنابر الوطنية والإقليمية والمحافل الدولية، لأنه من الملحوظ في هذا الصدد أن العديد من المثقفين، لا يملكون فهما دقيقا للدور الذي قام به هذا الكيان، وطبيعة عمله، بالإضافة إلى التطورات التي لحقت به فيما بين 2010 إلى 2021م، حتى أن الكثير من الناس يخلطون بينه وبين قسم اللغة العربية في كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة شيخ أنتا جوب بدكار.

تاريخ كلية علوم وتكنولوجيا التربية والتكوين

بدأ هذا التاريخ، مع إنشاء ما يسمى بالمركز التربوي العالي في دكار(CPS)، في عام 1962م، بدعم من (اليونسكو) لتلبية الحاجة الملحة لتكوين المعلمين على النحو المنصوص عليه في خطة التنمية الرباعية الأولى للسنغال المستقلة، كان هذا تجسيدا لتوصية قوية أتت من المؤتمر الأول للدول الأفريقية، حول تطوير التعليم، الذي عقد في عام 1961م بأديس أبابا، تحت رعاية مشتركة من اللجنة الاقتصادية لأفريقيا ومنظمة اليونسكو⁽¹⁾.

لأنه، في مطلع الستينات نالت أغلبية الدول الإفريقية، استقلالها، وواجهت مشاكل متعددة لإقامة هيئات أو مرافق حكومية بسبب نقص من الموظفين الكبار والمتوسطين، وأمام الاحتياجات العديدة في مجال تربية الجماهير، باعتبار أن التقدم يعتمد كلياً على التربية، فإن الحكومة السنغالية، قامت بتأسيس هذا الكيان بغرض تكوين مدرسي المدارس الثانوية العامة⁽²⁾ وفي عام 1962م، تحول المركز التربوي العالي

¹ - 1962 - 2021 CPS - ENS - FASTEF ; Cinquantenaire de la FASTEF

. راجع/ الموقع الرسمي للكلية على الرابط التالي:

² <http://Fastef.ucad.Ucad.Sn/historique.htm>

إلى (المدرسة العليا لتكوين الأساتذة بكار) (ENS)، وكانت منذ البداية تحت إشراف وزارة التربية الوطنية، ثم أصبحت في عام 1965 مؤسسة تابعة لجامعة دكار، منذ ذلك الوقت حتى الآن. وكانت من بين المجالات أو التخصصات الموجودة في المدرسة العليا فور إنشائها: قسم الآداب، والتاريخ، والجغرافيا، والحساب، والعلوم الفيزيائية، والعلوم الطبيعية (3).

نشأة الكلية

تم إنشاء كلية علوم وتكنولوجيا التربية والتكوين لتتولى المسؤولية من المدرسة العليا، والتي بُعِد أن ساهمت في تدريب المديرين التنفيذيين التربويين الأكفاء، وذوي التقدير، مثل (معلمي المدارس المتوسطة والثانوية، والابتدائية، ومفتشي ما قبل المدرسة، ومفتشي التعليم المتوسط والثانوي، ومفتشي الحياة المدرسية، والمتخصصين في المجال التربوي)، ومن ثمّ أُتيحت الفرصة للكلية كجهاز قادر على مواجهة التحديات الجديدة، على وجه الخصوص، أمام الطلب القوي على التعليم، والحاجة إلى تكوين أكبر عدد ممكن من المؤهلين، أثناء التكيف مع البيئة الجامعية العالمية الجديدة التي يتميز بها نظام (LMD أي الإجازة، والماجستير، والدكتوراه) العالمي بمعنى تحويل النظام التعليمي في الجامعات السنغالية وفق ما يجري في العالم، لتصبح شهاداتها تعادل مع هذا النظام الذي يهدف إلى التنسيق الدولي حول الدراسات والشهادات في التعليم العالي، من أجل تلبية المعايير الدولية في مجال التعليم بشكل عام، والتعليم العالي على وجه الخصوص. الأمر الذي أدى إلى إلغاء المدرسة العليا، وحلّت محلها كلية علوم وتكنولوجيا التربية والتكوين بالقانون الصادر رقم 40. 2008 م بتاريخ 20 أغسطس 2008 م (4).

³ المرجع نفسه <http://Fastef.ucad.Ucad.Sn/historique.htm>

⁴-Rapport de présentation projet de décret fixant les Conditions d'organisation et de fonctionnement des études à la Faculté des Sciences

مهام الكلية

تقوم الكلية بالمهام التالية، وهي:

1. تحقيق التكوين البيداغوجي على كل المستويين: النظري والتطبيقي للمدرسين العاملين في مجال التعليم المتوسط والثانوي، والذين تم تأهيلهم من قبل في الكليات الجامعية.
2. تكوين المدرسين في المرحلة المتوسطة بصورة مؤقتة تربويا وأكاديميا.
3. تكوين المؤهلين القائمين بمراقبة التعليم الابتدائي من المفتشين، والمفتشين المساعدين.
4. القيام ببحوث علمية في مجال علم النفس التربوي، وغيره، وإصدار وثائق تعليمية.
5. تنظيم ندوات ودورات تدريبية للمدرسين⁽⁵⁾.
6. تكوين المتعلمين المتعاقدين عن بعد.

والجدير بالذكر أن استهداف هذه الأمور راجع إلى الخبرة الطويلة المكتسبة من المدرسة العليا لتكوين المعلمين، والطلب الحالي على إضفاء الطابع المهني على فئات مختلفة من موظفي التعليم، والآفاق التي فتحت من خلال أهداف التنمية الألفية (الأهداف الإنمائية للألفية الثالثة)، والتنمية المستدامة، التي تخلّفت بكثير عن الالتزامات التي تعهد بها المجتمع الدولي خلال منتدى التعليم الذي عقد في دكار عام 2000م. إنها بالفعل مسألة إنشاء إطار يفضي إلى دعم وضمنان للتطوير والاستجابة على الطلب المتزايد في مجال التعليم الجيد للجميع طوال الحياة⁽⁶⁾.

ولأهمية تكنولوجيا المعلومات والاتصالات (TIC) في التعليم بصورة عامة والتكوين بصفة أخص مسألة عالمية غير قابلة للنقاش، وشرطا أساسا في مؤسسات

et Technologies de L'Education et de la Formation (FASTEF) de L'Université Cheikh Anta Diop de Dakar, p. 1.

⁵. ساليو انجاي، إدارة المدرسة الثانوية السنغالية ومصطلحاتها، بحث لنيل شهادة الكفاءة في المدرسة العليا للأساتذة، 1999م، ص 25 28.

⁶. ساليو انجاي، المرجع نفسه، ص 1.

تدريب المعلمين، لما تسهم في تحسين جودة التعليم، لقد فهمتها كلية علوم وتكنولوجيا التربية والتكوين جيداً، وشاركت في وقت مبكر في تطوير التعليم الرقمي، من حيث الاستخدامات المؤسسية، والإدارية، والتعليمية⁽⁷⁾.

عمداء الكلية

اعتمدت الكلية بمؤلاء الأساتذة لتسيير إدارتها، وهم:

1. د/ بوسنيل (Busnel) فرنسي الجنسية من سنة 1962 حتى 1967م.
2. السيد/ آمادو تراوريه (Amadou Traoré) فيما بين 1976 حتى 1975م).
3. البروفسور/ إبادير تيام (Iba Der Thiam)، من سنة 1975 حتى 1983 م.
4. السيد/ سيغا سيك فال (séga Seck Fall) من سنة 1983 حتى سنة 1999م.
5. السيد/ فالجوجو انجاي (Valdiodio Ndiaye)، من سنة 1999م حتى 2006 م.
6. البروفسور/ عبدل صو (Abdoul Sow)، من سنة 2006م حتى 2009م.
7. البروفسور/ الحاج إبراهيم جوب (El haji Ibrahima Diop)، من سنة 2009م حتى 2015م.

⁷ -Atelier de renforcement des Compétences et d'orientation du dispositif formation à distance, Université Cheikh Anta Diop ; Faculté des Sciences et Technologies de L'Education et de la Formation, 2020, p. 3.

8. البروفسور / ممدو بياي (Mamadou Biyayi)، من 2015م حتى 2021⁽⁸⁾.

9. البروفسور / مصطفى سخن (Moustapha Sokhna) العميد الحالي من 2021 م ⁽⁹⁾.

دور قسم اللغة العربية في التكوين

قسم اللغة العربية جهاز فرعي تنفيذي، وإداري تربوي، مثل بقية الأقسام الأخرى في الكلية، تم إنشاؤه سنة 1976م ليتولى تأهيل وتكوين أساتذة اللغة العربية، قبل تعيينهم وتوظيفهم، في المدارس الحكومية السنغالية، بوصفهم أساتذة اللغة العربية في مرحلتي (المتوسطة والثانوية). وتجدر الإشارة إلى أنه، هو القسم الوحيد الذي هو منوط بالتدريب والتكوين التربوي لحملة الشهادات الجامعية بنوعيتها (الإجازة والماجستير) في السنغال ليُكوّنوا مؤهلين في المرحلتين المذكورتين.

كان معلمو هاتين المرحلتين في البداية يوظفون للتدريس دون سابق إعداد، وتأهيل تربوي، فصار منذ عام 1976م لا يلتحق بالتعليم الإعدادي أو الثانوي بوصفه معلما فيهما إلا بعد إعداد وتأهيل تربوي لائق. ولأجل هذا أنشئ هذا القسم بالمدرسة العليا بدار وأنيط به مهمة تكوين معلم اللغة العربية في المدارس الإعدادية والثانوية. وفي هذا الوقت بالذات قد برز على الساحة السنغالية اهتمام غير عادي من طرف الحكومة السنغالية، بمسألة إعداد معلم اللغة العربية في المرحلتين، باعتباره أداة أساسية، في تحقيق التطور المطلوب، في عملية تعلم وتعليم اللغة العربية كلغة حيّة، في نظام السنغال التعليمي. ويعتبر هذا الاهتمام، من أهم العوامل المساعدة في عملية تحسين واقع إعداد معلم هاتين المرحلتين بالشكل الذي يتناغم، مع احتياجات المجتمع السنغالي،

⁸ باي مودوكبه، رسائل قسم اللغة العربية 2005 - 2006م جمعا وفهرسة، كلية علوم وتكنولوجيا التربية والتكوين، بحث مكمل لنيل شهادة الكفاءة للتدريس في المدارس الثانوية، 2018 - 2019م، ص 11.

⁹. تم انتخابه في الكلية قبل يومين بالتاريخ 23/06/2021م ولم يستلم مهامه بعد، إلا في نهاية هذا الشهر.

ومتطلباته الأساسية في اللغة العربية، والثقافة الإسلامية⁽¹⁰⁾. وقد تضاعفت جهود قسم اللغة العربية، نحو استيعاب أعداد تفوق المعتاد بفضل تحويل المدرسة العليا إلى كلية تابعة لجامعة شيخ أنثا جوب، ومتخصصة في مجال التكوين التربوي للمدرسين في كل تخصصاتهم، ما دفع المسؤولين في جامعة دكار وعلى رأسهم وزير التعليم العالي، إلى تطوير المنهج الدراسي على مستوى جميع الأقسام بما فيها قسم اللغة العربية، ابتداء من عام 2010م، واستمرّ التطوير بناء على خبرات العاملين في المدرسة العليا سابقا، نتيجة تبادل الخبرات في هذا المجال مع جهات داخلية وخارجية. وقد تم تطوير المنهج الدراسي في عام 2020م ليتواءم دور الكلية مع ما يستجدّ في ميدان التكوين التربوي في العالم، وما ينبغي أن يكون محليا، وفي هذه السنة 2022م أقامت إدارة الكلية سمنا را رفيع المستوى شارك فيه كل الجهات التي لها صلة بالتعليم والتربية في فندق سلي امبور لمراجعة الخطط الدراسية لتتواءم مع وضع الكلية وسياستها التربوية الحالية.

مهام القسم

يقوم القسم بمجموعة من المهام، من أهمها:

1. تأهيل وتكوين معلمي المرحلتين المذكورتين (نظريا وتطبيقيا).
2. الإشراف على التربية العملية والتفتيشية.
3. الإشراف على البحوث العلمية المكملة لشهادة الكفاءة للتدريس في المدارس الرسمية الفرنسية، مرحلة المتوسطة والثانوية.
4. تمثيل أعضاء هيئة التدريس في الاجتماعات العمومية للكلية.
5. إجراء مسابقة الدخول لأساتذة المشاركين في امتحانات الاختيار.
6. تقديم الخدمات الاجتماعية والثقافية لمنسوبي الكلية.

¹⁰ عبد الرحمان وان، واقع إعداد معلم اللغة العربية حاليا لكل من المرحلة المتوسطة والثانوية في المدارس السنغالية، ندوة 1997م، ص 3.

5. تمثيل الكلية لدى الجهات ذات الصلة باللغة العربية، داخليا وخارجيا.

كيفية الالتحاق بالقسم

فقد كان من أبرز الاتجاهات التي سادت وتعمقت في مجال إعداد معلم اللغة العربية في المرحلتين المذكورتين، في فترة ما بين 1986 و 1985م، إجراء مسابقة صعبة ومعقدة⁽¹¹⁾ لاختيار أفضل العناصر من بين المترشحين للمشاركة في امتحانات الدخول، للالتحاق بالقسم، وقد صاحب تقنين هذه المسابقة تقليص وتضييق ملحوظ، سنة بعد سنة في عدد المقاعد المخصصة للقسم من جهة، وفي تخصص المترشحين لهذه المسابقة من جهة أخرى. وقد نتج عن هذا التقليص، أن عدد المقاعد المخصصة للقسم في العام الدراسي 1993م - 1994م لم يتجاوز أربعة مقاعد فقط بعد أن قاربت أربعين مقعدا في عام 1977م - 1978م، وإضافة إلى هذا التقليل الملحوظ في عدد المقاعد السنوية، أضيف واقع آخر، مزعج يتعلق بتخصص المترشح لهذه المسابقة، حيث اتخذت وزارة التربية الوطنية السنغالية في عام 1984م بمبادرة من إدارة المدرسة العليا لتكوين الأساتذة قرارا يقضي بعدم سماح غير خريجي كليات اللغة العربية بشعبها المختلفة، وخريجي الكليات التربوية، بتقديم طلبات الترشيح للالتحاق بقسم اللغة العربية، ولحسن الحظ لم يستمر تطبيق هذا القرار إلا في سنة 1992 - 1993م، بعد أن أصدرت إدارة المدرسة العليا قرارا آخر يخص الالتحاق بالقسم على حاملي شهادات في التربية، وعلم النفس، واللغة العربية وآدابها، وما شابه ذلك من التخصصات في اللغة العربية، فقررت بذلك عدم قبول شهادات خارج هذا النطاق الذي حددته⁽¹²⁾. لقد علّلت إدارة المدرسة العليا سبب هذا القرار بضرورة التطبيق على قسم اللغة العربية بالمدرسة، ما هو مطبق على سائر الأقسام الأخرى في المدرسة نفسها، وعدم التمييز

¹¹ واقع إعداد معلم اللغة العربية حاليا لكل من المرحلة المتوسطة والثانوية في المدارس السنغالية، عبد الرحمن وان، ندوة 1997م، ص 3.

¹² عبد الرحمن وان، واقع إعداد معلم اللغة العربية، المرجع نفسه، ص 31.

بينه وبينها، وينبغي أن تذكر بأن هذا القرار أيضا لم يستمر في تطبيقه إلا في سنة واحدة، أي عام 1992 - 1993م، ولحسن الحظ لم يحترم في مسابقة السنة الدراسية 1993 - 1994م⁽¹³⁾. وقد استمر هذا القرار حتى بداية العقد الثاني من الألفية الثالثة 2010م - 2015م، بعد تحويل المدرسة العليا إلى كلية علوم وتكنولوجيا التربية والتكوين، لكن حاليا لم تعد مشكلة التخصصات مطروحة على أجنحة القسم، وأصبحت كل التخصصات العلمية مقبولة بما فيها تخصصات الشريعة وغيرها، ولكن المطروح الآن مسألة شهادة معترفة من جامعة معترفة، مع الحصول على معادلة من قبل إدارة جامعة شيخ أنتا جوب، وفق النظام الدراسي فيها، بحيث لا يمكن المشاركة في المسابقة بدونها. بناء على هذا الدور فإن القسم قد تمكن في فترة ما بين 1980م - 2022 من تكوين ما يقارب (1710)⁽¹⁴⁾ معلما ومعلمة تكويننا حضوريا، أما التكوين عن بعد فيقدر تقريبا بـ (252).

رؤساء قسم اللغة العربية

قد تم تبادل رئاسة القسم منذ إنشائه عام 1976م⁽¹⁵⁾ حتى الآن، مجموعة من المكونين، هم:

- 1- د. عيسى لاي تياو 2- د. عبد الرحمن وان 3- د. الحسن يورو لي 4- د. عبد ملل جوب 5- أ. شيخ فال 6- أ. محمد لو، من (2006 . 2015) 7- د. سيدنا علي جوب من 2015 حتى 2019م. 8- د. شيخ صمب، من 2019م حتى هذه اللحظة التي يكتب فيها هذا البحث.

¹³. المرجع نفسه، ص 4.

¹⁴ FASTEF ARCHIVE, STATISTIQUE PRESENTIL, 2021

¹⁵. محمد لو، تكوين وتقييم أساتذة اللغة العربية (السنغال نموذجاً)، ندوة علمية عن التعليم العربي والثقافة الإسلامية في أفريقيا الساحلية، الواقع والآفاق، دكار، 2007م، ص 4.

مساقات التكوين في القسم

وتجرى مساقات التكوين في القسم على المستويات الآتية:

1. **مدرسو المرحلة المتوسطة (F1A):** وهم أصحاب الإجازة في اللغة العربية: يُكوّنهم القسم في المرحلة المتوسطة لتدريس مادة اللغة العربية، كلغة حية، في بعض المستويات، أو لغة كلاسيكية في مستويات أخرى على اختيارهم لهذه اللغة. يستمرّ تدريب هؤلاء، لمدة عام دراسي واحد، بعد النجاح في مسابقة الدخول، وهو العام الذي يتلقى فيه المرشحون تدريباً تربوياً (نظرياً وعملياً) في آن واحد⁽¹⁶⁾ وبعد التدريب، تقوم وزارة التربية الوطنية بتوظيفهم بعد أن حصلوا، على شهادة الكفاءة للتدريس في المرحلة الإعدادية.

2. **مدرسو المرحلة الثانوية (F1B):** هم الأساتذة الناجحون في مسابقة الدخول، الحاصلون على شهادة الدبلوم العالي أو الماجستير في اللغة العربية أو في التخصصات الأخرى باللغة العربية، يقوم القسم بتكوينهم لمدة عامين دراسيين لدى حملة حاملي شهادة الدبلوم العالي، أو سنة دراسية واحدة لحاملي شهادة الماجستير، تكويناً تربوياً (نظرياً وعملياً)، ثم توظيفهم وزارة التربية الوطنية، بعد الحصول على شهادة الكفاءة للتدريس في المرحلة الثانوية، لكي يدرّسوا مادة اللغة العربية لغير الناطقين بها لتلاميذ هذا المستوى كلغة اختيارية.

3. **مدرسو المرحلة المتوسطة من نوع آخر F1C:** هم الأساتذة الذين يحملون الشهادة الثانوية العربية، ويدرسون في الوقت نفسه في المرحلة الإعدادية، ويعتبرون من الأساتذة المتطوعين، وبعد السنتين من التدريس المتواصل، يدخل المعني في طور التعاقد،

¹⁶ Programme de Formation à distance des Enseignants, Manuel de Procédures, Université Cheikh Anta Diop, Faculté des Sciences et Technologies de l'Education et de la Formation, p. 3.

مع الحكومة السنغالية دون سابق التكوين، وبعد تكوينهم عن بعد، يتم ترسيمهم كموظفين وينالون حقوقهم المهنية⁽¹⁷⁾.

4. بجانب تلك المسابقات العلمية التكوينية، يقوم القسم بتأهيل حاملي الشهادة الثانوية الراغبين في الحصول على شهادة أكاديمية تعادل الإجازة بعد سنة دراسية، من خلال برنامج دراسي يحتوي على المواد اللغوية، ليتمكنوا من مواصلة التكوين في المرحلة F1A بعد النجاح في المسابقة. وكذلك الذين حصلوا على شهادة الإجازة، ويرغبون في الحصول على شهادة الكفاءة للتدريس في المرحلة الثانوية، فلا بدّ من دراسة سنة دراسية أكاديمية من خلال منهج دراسي يتناول المواد اللغوية ليحصلوا على شهادة أكاديمية، تعادل شهادة الماجستير. وهؤلاء جميعا يسمون بالعبوريين (Passerelle) لأنهم يعبرون من خلال هذا التأهيل العلمي للحصول على شهادة علمية متخصصة، تمكنهم من الدخول في أحد المساقين للتكوين التربوي (F1A) أو (F1B).

5. يقدم القسم شهادة الماجستير في مجال العلوم التربوية، لأصحاب الإجازة، بواسطة منهج دراسي تربوي، بعد دراسة تمهيدية، يعقبها بحث تكميلي في المجال نفسه. والجدير بالإشارة أن جميع المترشحين للتكوين أو للتأهيل العلمي في تلك المسابقات العلمية المختلفة، فلا بدّ أن يكتبوا بحثا علميا للتخرج.

المنهج التكويني في الكلية

يتكوّن المنهج التكويني، على شقين أساسيين، جانب نظري، وجانب عملي.
أ. الجانب النظري، ويتمثل في المواد الدراسية التي تدور حول مجموعة من العلوم التربوية التي تعطي فكرة أساسية للمتربصين عن التربية والتعليم.
ب. الجانب التطبيقي، ويتمثل في الآتي:

¹⁷ المرجع السابق.

1. **التعليم المصغر:** يقوم القسم بهذا النوع من التعليم، لإعطاء الطلاب - الأساتذة فكرة أساسية عن كيفية تنفيذ عملية التدريس لحصة ما، تمهيدا لهم، للتربية العلمية في المدارس الإعدادية والثانوية.
2. **دروس المشاهدة:** تتم مشاهدة هذه الدروس التطبيقية في الثانوية التطبيقية النموذجية التابعة للكلية، ويلقي هذه الدروس أساتذة تطبيقيون بحضور المكونين في الكلية، يتولون الإشراف على مناقشة الدروس، فور الانتهاء منها، وتقييمها بيداغوجيا⁽¹⁸⁾. كانت تلك الدروس محصورة في تلك الثانوية النموذجية، ولكن أصبحت الآن مفتوحة لكل الإعداديات و الثانويات في دكار، ويقوم بها أستاذ المادة الذي يشرف على الطالب المتربص.
3. **التربص (التربية العملية):** يرسل الأساتذة المتربصون إلى المدارس الإعدادية، والثانوية للتربص، يدوم ثلاثة أشهر، تحت إشراف أستاذ كفء، ليقوم الطالب - المتدرب في إلقاء الحصص اليومية على رأى ومسمع الأستاذ المشرف عليه.
4. **التفتيش:** يفتش المتربص من طرف لجنة مكونة على الأقل من مفتش عام في التعليم، وأستاذ ذي خبرة طويلة في التدريس، وأستاذ آخر مكوّن في الكلية.
5. **البحث العلمي:** يحرر المتربص بحثا تربويا أو لغويا بإشراف من أحد المكونين من قبل القسم، هذا البحث يجب ألا يقل عن ثلاثين صفحة، ويقوم المتربص بالدفاع عن البحث، أمام لجنة من المكونين في نهاية السنة الدراسية.
6. **إجراء امتحانين:** يجب على المتربصين أن يمتحنوا في نهاية الفصل الدراسي الأول، قبل الدخول في التربص، أما امتحان الفصل الدراسي الثاني فيكون بعد الانتهاء من التربية العملية، فإذا نجح الطالب - الأستاذ في المواد الدراسية، والتفتيش يتم تعيينه كموظف من قبل وزارة التربية الوطنية.

¹⁸. محمد لو، تكوين وتقييم أساتذة اللغة العربية (السنغال نموذجاً)، ندوة علمية عن التعليم العربي والثقافة الإسلامية في أفريقيا الساحلية، الواقع والآفاق، دكار، 2007م، ص 5.

مشكلات القسم

هناك العديد من المشكلات التي تواجه قسم اللغة العربية بكيه علوم وتكنولوجيا التربية والتكوين، ومن أهمها:

1. قلة عدد المدرسين، بمقارنة مع المستويات العلمية التي يكونها القسم سنويا.
2. عدم ميزانية مخصصة للقسم ليتمكن من خلالها تسيير أعماله الإدارية والأكاديمية.
3. غياب تجهيزات ومعينات تعليمية مناسبة لمجال التدريب في القسم.
4. قلة المصادر المناسبة للقسم، وخاصة ما يتعلق بمجال التربية وتعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها.
5. عدم وجود المكتبة الورقية والإلكترونية الخاصة بالقسم لتمكين طلاب العلم والباحثين من المراجع الأساسية.

الخاتمة

وضّح الباحث من خلال هذا البحث، أصالة اللغة العربية في المجتمع السنغالي، والدور المحوري الذي قام به كأحد مقومات الثقافة السنغالية عامة، وكذلك فإن البحث تطرق إلى تاريخ نشأة هذه المؤسسة إلى أن أصبحت كلية، لحاجة السنغال إليها، لإتاحة فرصة تكوين أكبر عدد ممكن من المدرسين، مع ضرورة المواكبة لما يحدث في مجال التدريب في العالم، وبهذا نجحت الكلية في تكوين عدد هائل من المدرسين. وقد بيّن البحث تاريخ نشأة قسم اللغة العربية في الكلية، ودوره المتعاظم في تدريب أساتذة اللغة العربية في البلاد، مع الإشارة إلى منهجه النظري والعملي، كما تطرق إلى المشكلات التي يعاني منها القسم، وكذلك دورها المرتقب في المستقبل.

مراجع البحث

1. انجاي، ساليو، إدارة المدرسة الثانوية السنغالية، ومصطلحاتها، بحث لنيل شهادة الكفاءة في المدرسة العليا للأساتذة، 1999م.
2. لو، محمد، تكوين وتقييم أساتذة اللغة العربية (السنغال نموذجا)، ندوة علمية عن التعليم العربي والثقافة الإسلامية في أفريقيا الساحلية، الواقع والآفاق، دكار، 2007م.
3. كبه، باي مودو، رسائل قسم اللغة العربية 2005 - 2006م جمعا وفهرسة، كلية علوم وتكنولوجيا التربية والتكوين، بحث مكمل لنيل شهادة الكفاءة للتدريس في المدارس الثانوية الحكومية 2018 - 2019م.
4. وان، عبد الرحمن، واقع إعداد معلم اللغة العربية حاليا لكل من المرحلة المتوسطة والثانوية في المدارس السنغالية، عبد الرحمان وان، ندوة 1997.

المراجع الأجنبية:

- 5- 1962 – 2021 CPS – ENS – FASTEF ; Cinquantenaire de la FASTEF.
- 6- Atelier de renforcement des Compétences et d'orientation du dispositif de formation à distance, Université Cheikh Anta Diop ; Faculté des Sciences et Technologies de L'Education et de la formation, 2020.
- 7- FASTEF ARCHIVE, STATISTIQUE PRESENTIL, 2021.
- 8- <http://Fastef.ucad.Ucad.Sn/historique.htm>
- 9- Programme de Formation à distance des Enseignants, Manuel de Procédures, Université Cheikh Anta Diop, Faculté des Sciences et Technologies de l'Education et de la Formation.
- 10- Rapport de présentation projet de décret fixant les Conditions d'organisation et de fonctionnement des études à la Faculté des sciences et Technologies de L'Education et de la Formation (FASTEF) de L'Université Cheikh Anta Diop de Dakar.